المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

حامل الشمس ينهض وقصص أخرى

مختارات قصصية لكاتبات أمريكيات هنديات

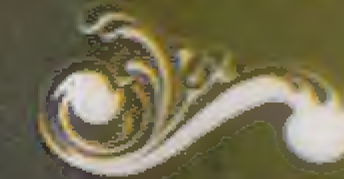
ترجمة

منى برنس

1649



سلسلة الإبداع القصصى



حامل الشمس ينهض
وقصص أخرى

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1649
- حامل الشمس ينهض وقصص أخرى
- نخبة
- منى برنس
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

مختارات قصصية لكاتبات أمريكيات هنديات

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524–2735452 6. Fax: 27354554

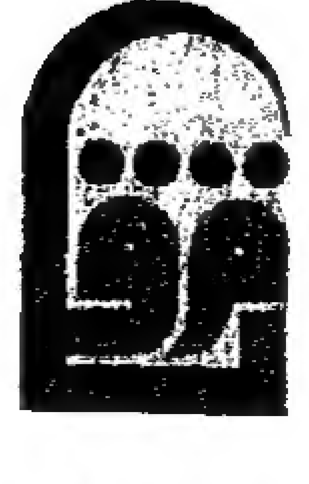
حامل الشمس ينهض

وقصص أخرى

مختارات قصصية لكاتبات أمريكيات هنديات

ترجمة

منى برنس



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حامل الشمس ينهض وقصص أخرى: مختارات قصصية لكاتبات أمريكيات هنديات/ ترجمة: منى برنس.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
١٧٢ص، ٢٠سم
١- القصص- مجموعات
٢- برنس، منى (مترجمة)
(أ) العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع ١٥٧٩٧ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N -978 -977 -704 -215 -4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

تشكل هذه المجموعة المختارة من القصص القصيرة نموذجا من أدب ما بعد الاستعمار الذى يعنى، من ضمن ما يعنى، بكتابات المرأة والكتابات الإثنية والكتابات ذات الصبغة الهجينية ثقافيا التى نتجت عن ذلك التفاعل الجدلى بين واقع الاستعمار وما بعده وبين الواقع المحلى للسكان الأصليين المستعمَرين. وتأتى أهمية هذه المجموعة من كونها كتابات لنساء هنديات أمريكيات ينتمين لكل من الثقافة الغربية التى فرضت عليهن وثقافاتهن الهندية المحلية. ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الكاتبات أنفسهن مهجنات بيولوجيا، إذ ليس بينهن من يطلق عليها "ذات دم هندى تام". فأصول هؤلاء الكاتبات تتنوع ما بين الإسبانية، والفرنسية، والإنجليزية إضافة إلى القبائل الهندية التى ينحدرن منها. ومع ذلك تفصح القصص المختارة هنا عن انحياز صريح، قد لا يكون مقصودا أحيانا، للمكون الهندى فى الشخصيات النسائية اللائى يشكلن محورا رئيسيا فى الحكى الهندى التقليدى وفى الحياة الهندية بصفة عامة، خاصة من ينتمين إلى قبائل كانت أمومية الطابع.

والحكى بكل أشكاله ومواده من التيمات الأساسية فى حياة النساء الهنديات الأمريكيات. فهن يحكين وهن يشكلن قطع الصلصال، وهن يغزلن القطن والألياف وينسجن البسط والألحفة. يحكين ما سمعنه من روايات تخصهن أو تخص القبيلة والأجداد، ويعدن حكى الروايات من جديد بما يتضمن ذلك تفصيلات جديدة وأشخاصا جددا. وتشكل منسوجاتهن حكايات فى حد ذاتها، إذ تنسج كل امرأة فى العائلة جزءا من حكاياتها الشخصية والمضفرة مع نسيج حكايات القبيلة؛ ليصبح النسيج فى الأخير نوعًا من الريبرتوار الشفهى العائلى والقبلى تتوارثه نسوة الأسرة، التى غالبا ما تكون دون عائل من الرجال، وتظل الحكاية محفوظة، كما يتضح فى قصة "حذاء جديد" للكاتبة ليندا هوجان.

ونظرا لأن هؤلاء الكاتبات الهنديات ينتمين لقبائل مختلفة، فإنهن يفصحن عن تقدير طبيعى للاهتمامات النسوية، وذلك إما لأنهن ينتمين لقبائل كانت أمومية وكانت المرأة محورها- وبالتالى يشعرن الآن بأنهن مسلوبات القوة، بسبب تعدى الأشكال الذكورية الأوروبية عليهن- أو لأنهن ينتمين إلى قبائل تقلل من شأن قدرات المرأة لصالح هيمنة الرجل. ومن الواضح، من خلال، قصص هذه المجموعة، أن الإدراك المؤلم لحالة العديد من النساء الهنديات، الحياة البائسة التى يعشنها، الفقر، وإساءة أو هجر الرجال لهن، هو ما يدفع الكاتبات

للتعبير عن هذه الهموم، لكن أصل هذه المشكلة ينبع من القسوة والتمييز ما بين الجنسين من قبل الرجال الهنود والمجتمع الأبيض على السواء. ببساطة هن يحكين ما يرونه وما يعايشنه وما يتطلب التمثيل والتعليق. الانتحار، وإدمان الخمر، والحياة المهدرة، والنساء المسحوقات، كل هذا يشكل جزءا من النسيج الهندى، وتمثيل هذه الحياة يعد تعقيبا سياسيا متكاملا. ومع كل تلك القتامة، إلا أن بعض الكاتبات يلجأن إلى الضحك والتهكم بوصفها وسيلة درامية للتغلب على المشكلات التى تملأ الواقع الهندى، كما فى قصة "محطة الوزن" لــ لويز إردريتش، وقصة "قطن طويل التيلة" لــ راينا جرين.

ويتنوع الفضاء المادى والنفسى فى هذه القصص وفقا لانتماءات الكاتبات الحضرية والقبلية. ورغم أن معظمهن يعشن فى المدينة، فإنه دائما ما توجد إشارة إلى المحمية وأنماط الحياة التقليدية، سواء بشكل استعارى أو حرفى. فهناك إشارات إلى شجارات البارات، ورعاة البقر، ومخلفات السكارى، والعشاق، والجد، والجدة، والأعمام، والأردية السوداء، والراهبات. كذلك قد تستوحى الكاتبات موضوعات من أزمنة تاريخية مختلفة أو يعدن إلى الأساطير الخاصة بقبائلهن، مثلما يحدث فى قصة "تنين النار اسقط بجانبى مرة أخرى" لــ روبرتا هيل وايتمان.

وأخيرا وليس آخرا، ربما تشكل هذه المجموعة المختارة نوعا من رحلة بحث عن الذات حتى وإن كانت اضطرارية فى بعض الأحيان. فمثلما خرج الرجال إلى "الممشى الطويل"، ومعهن النساء، وعبروا "ممر الدموع(*)" فى القرن التاسع عشر بناء على قرارات الترحيل التى أصدرتها الحكومة الأمريكية حينها، تخرج النسوة الآن فى رحلة مشابهة بحثا عن العمل، أو هربا من إساءة رجالهن لهن، أو لتتبع أزواجهن، أو للتعليم. يذهبن إلى المدينة التى قد تصبح نوعا من البيت وقد لا تصبح. البعض قد يعود إلى المحمية الهندية(*)، والبعض يهمن على الطرق، بحثا عما يطلق عليه الهنود "الكينونة الهندية"، أو ما يسميه علماء الاجتماع بـــ "الهوية". لكنها بالتاكيد ليست تلك الهوية الجامدة التى لا تعترف بالمكونات الثقافية المختلفة. فهؤلاء الكاتبات واعيات تماما بمكوناتهن الهجينة، واعيات بموقعهن الوسطى "بين بين" وبالتالى، الهوية بالنسبة لهن مسألة إرادة، فعل اختيار، وجه، يجب أن يتشكل فى فعل طقسى.

د. منى برنس

الهوامش

[*] ممر الدموع. طريق الانزياح الذى سلكه شعب الشيروكى من الجنوب الشرقى إلى أوكلاهوما، أركنساس، وتكساس حيث لقى الآلاف حتفهم. دفعوا قسرا لترك أراضيهم الخصبة من قبل أندرو جاكسون، وسقطوا فى براثن الفقر والجهل، ولم ينهضوا كلية من هذه السقطة.

[*] المحمية الهندية. المحمية هى موطن الآلاف من الهنود الذين شملتهم المعاهدات الفيدرالية، والذين يعيشون على أرض المحمية. ولكن المحمية من وجهة نظر الشباب الهندى تعنى أكثر من ذلك. إنها تمثل الفقر، والبطالة، والمتاعب، وأيضا الحرية، وغياب الجنس الأبيض، وطرق الحياة الهندية، والبيت، ومركز الهوية.

حامل الشمس ينهض

باولا جن آلان

كان هناك رجل. دخل حياتها، يغذيها ويتغذى عليها. حدثته عن السحر، عن الغموض الذى تعرفه. لكنه، جودا، لم يصدقها. قالت إن ذلك هو السبب الذى جعلها تجلس على التاتامى رافعة قدميها فوق أرضية شقته، فى منتصف الغرفة.

كان يتحدث بعذوبة، لكن دون أن ينظر إليها، كالمنوم مغناطيسيا. طبخ طعام العشاء، بينما تغرب الشمس على سان فرانسيسكو، وتحدثا وهما يأكلان على التاتامى. تحدثا وشربا، هى تحدثت عن السحر وهو تحدث عن عمله. أكلا طعاما أعده على الكانون، على الطريقة اليابانية. "أنا من جيل نيسى قال". هناك إيسى، نيسى، سنسى، يونسى. هؤلاء أجيال فى أمريكا. إيسى هم الأقدمون. أنا أنتمى إلى نيسى. نحن الشعب الوحيد الذى يحصى الأجيال، " قال:

تذكرت قبيلتها، المنحدرة من إيبيتيكو، امرأة الأرض، امرأة القمح(*). كان هناك أربع قبائل قمح، ثم قبيلتها. "أنا من جيل السنديان، "قالت" الخامس. عمي، رجل السنديان، ساعد إيبيتيكو فى البداية. ساعدها فى وضع النظام، القوانين. الطريقة التى سيعيش بها الناس. كيف سيكونون. كان أول كابتن حرب، أول شيخ قبيلة بالخارج. بدأنا نحسب العدد منذ الزمن الذى أتى فيه الناس إلى هنا من العالم السابق، تماما مثلك".

عندما حل المساء، وتكثّف الضباب على الزجاج، خلع عنها ملابسها وكأنها دمية وأخذها إلى الفراش على التاتامى، حيث تناولا عشاءيهما من قبل. حوّل المائدة إلى فراش. وضعها عليه. دخلها، ببطء، متحكما فى التوقيت، ضاجعها، وجهه بعيدا عنها، مركزا على جهده هو ليشبع شيئا غير منطوق بداخله، شيئا بعيدا جدا وعميقا لا يقر به ولا برفة عين، ولا حتى بنظرة فى اتجاهها، ضاجعها كدمية، ثم سكن بجانبها، وخلد إلى النوم.

عندئذ نظرت إليه. جسده الصغير. جلده البنى ينبسط بينما ترتخى العضلات. ويرتخى هو قدر ما تستطيع تلك العضلات. أخذت تنظر إلى لمعان جلده، لفترة طويلة.

تساءلت وهى تراقبه نائم بعمق، فى مكانه بعيد جدا عنها، لم فكرت فقط فى الجرح. عندما تكون قريبة منه، لماذا تبكي. ممارسته للجنس كانت جيدة. متواصلة وواثقة. غير مرتبكة. حرة، نظيفة بشكل ما. مثل شقته المرتبة. مثل طعامه النظيف. كان جيدا، ورغم أن جسدها تجاوب معه، فإنه ظل بعيدا عنها، بعيدا عن أى مكان عاشته. عيناه، مفتوحة أو مغلقة، لم تمسها، وأثناء المضاجعة نطق بالقليل، ولا شىء فى الحقيقة موجها إليها، فقط الألفاظ المعتادة التى تعلمها عن ظهر قلب ليقولها وهو ينتهى. وعندما انتهى استدار ونام وأخذتها يقظتها إلى بيتها. بأدب. بنعومة. وبكت. لم تدر ماذا تفهم من ذلك. من ثقته. رغبته. وثوقه المنعزل. مثل ستيفن، رفض أن يجعلها حقيقية.

ربما كان رجلا- روحا. ربما كلاهما هو وستيفن كانا رجلين- روحين. ربما كانا فى حياتها مثلما كان الآخرون فى أحلامها. رجال يشعرون بأهميتهم. متقلون. يشيرون إلى أو بعيدا. من نوم إلى نوم، من طيف إلى ظل، من حاجة إلى حاجة. هناك فى النهير الذى يجرى بطول جوادالوب(*) تعلمت أن تحفر تربة صفراء عديمة النفع وتشكل منها قدورا لتأكل منها الشمس. تلف الحبال، تشم الرائحة الحلوة للأرض، صنعت أشكالا من الطين وإلينا بجانبها تحت الظل الممتد الذى صنعته جدران النهير العالية. حفرت، جمعت

التراب. بنعومة، شكلته. وحيدة فى المكان الذى أوى أطياف قليلة، كانت بمفردها وكانت خائفة. ممتطية الريح فى صباح غزلته الشمس خرجت وعادت، متعجبة. وفي عتمة الهزيع الأخير من الليل، حين يكون الأطفال في عمق نومهم، تستلقى، عيناها تبحلق على اتساعهما في الظلال، تتلمس ألمه. جودا، ستقول، وتختبر الكلمة على لسانها. بوشورى. رجل نيسى. وستفرك راحة يدها على طرف البطانية الساتان، ثم تتمدد فى ظلال تلك الليلة الشمالية، وتشد عقلها إلى النوم.

وحلم. أنها تمشى فى ردهات ما فى متحف. حيث لم يتعرف عليها أحد، لا أحد انتبه إليها. تمشى فى ممرات لانهائية، الرخام يلمع، والورق المذهب مشذّب، قاعات يقطعها بشر، وجوه مظللة تبتعد عنها إذا ما التقت عيناها بأعينهم، يستديرون إلى الحائط بدلا من الاستدارة إليها، والنظر إليها، ورؤيتها. كانت تهيم فى هذه القاعات، غير قادرة على إيجاد طريقها للخروج. لا الطريق الذى أتت منه، ولا الطريق الذى يؤدى للخروج، وصرخة صامتة تتصاعد بداخلها، دائما ما تتصاعد لكنها لا تصدر أبدا فى تلك القاعات الصامتة الرخامية. لا أحد خاطبها هناك.

فى أحلامها تدخل أحيانا إلى غرفة مزدحمة، تجلس مع الناس وتنتظر المتحدث، الفيلم، أيا كان ما يعرض هناك للتسلية أو للإرشاد.

وتجد نفسها غير قادرة على المكوث، فى حاجة إلى تلمس طريقها، أن تهدئ من روع الصوت الذى يعلو ويعلو بداخلها، أنت لست هنا، لست هنا. وتخرج لتمشي مجددا فى الممرات حيث ظهرت جدران محل المخرج الذى كان، حيث الدرجات التى كانت هابطة أصبحت الآن صاعدة، حيث بحثت عن شخص لم تجده. ثم تستيقظ، واعية فقط بالرعب البارد الذى يلف معدتها، رعشة عروقها والدم يحاول أن يجد طريقه فى شرايينها. شرايين تتفرع مثل شجرة انتصبت خارج نافذتها فى ذلك المكان الآخر، المكان الذى تركته.

فى أحد هذه الأحلام رأت أمها، تمشى فى الممر بالقرب من الحائط. آجنس وبن كانا معها. كانوا يتحدثون ويضحكون وهم يسرعون الخطو. إيفانى حاولت أن تعبر الممر أمامهم، لكن كان هناك كثير من الناس وكانوا كلهم يسيرون باتجاهها. نادت أمها، لكنها لم تنظر فى اتجاه إيفانى. نادت آجنس، نادت بن، لكنهم تابعوا سيرهم باتجاهها دون أن ينظروا إليها. ثم مروا أمامها. التفتت، نظرت إليهم، حاولت أن تلحق بهم لكنهم اختفوا كما لو لم يكونوا موجودين على الإطلاق. ثم استيقظت، والدموع تنهمر من عينيها. لا أحد يعرف اسمى، فكرت. ونهضت فى تلك الساعة المبكرة حيث الضوء بارد وضبابى لتدخل مطبخا لم تعرفه، لتتجول داخل شقة

لم تميزها، لتنظر إلى أوان وأكواب، فخار وصور لم تعرفها، لتحدق طويلا فى مرآة الحمام تحت ضوء قاس متقصف، وجه لم تتعرف عليه.

ملاحظات المعالج. ٢٦ يوليو، ١٩٧٦

حلم: "أنا فى مبنى ضخم فى مكان ما. مصنوع من الرخام. أظن أنه متحف. يوجد العديد من القاعات وشتى أنواع البشر. لا أستطيع أن أجد طريقي للخروج. أنا أبحث عن شخص ما، لا أعرف من، لكنى أزداد توهانا ولا أستطيع أن أجدهم. وبينما أسير، يأتى الناس نحوى ثم يستديرون بعيدا عنى. يستديرون ناحية الحائط حتى لا يضطرون للنظر إلىّ. كلهم غرباء. الآن أرى أمى آتية نحوى. هى بصحبة الأطفال ويسيرون الناحية الأخرى من هذه الردهة الكبيرة. يبدو أن الجميع يسير فى اتجاه واحد إلا أنا. أنادى أمى وبن وآجنس، لكنهم لا يتصرفون وكأنهم يسمعونى أو يرونى. فقط يتابعون سيرهم، فى الاتجاه المعاكس لى، يتحدثون وينظرون إلى ما حولهم. ينظرون حولهم لكنهم لا يروننى رغم أننى ألوح لهم كى ألفت انتباههم إلىّ. يتابعون السير ويمرون من أمامى وأنا أحاول أن

أستدير وأتبعهم، ولكن وأنا أستدير لا أستطيع أن أراهم فى أى مكان. كما لو أنهم اختفوا تماما".

المعالج: "كونى الناس"

إيفانى: "أوكى. أنا الناس. نحن نسير فى قاعة المتحف. نحن فى طريقنا إلى مكان ما، وقد حان الموعد تقريبا. هناك محاضرة مهمة وجولة بالمكان، ولا نريد أن نفوتها. هناك تلك المرأة التى تسير فى الاتجاه الخاطئ، لكننا لا نعيرها أدنى انتباه. هى ليست ذاهبة فى نفس الاتجاه. البعض منا يخرج عن طريقنا كى يتحاشاها، وهذا يبطئ سيرنا. لا يعجبنا ذلك، لكننا لن ندعها تعرقل هدفنا. نحن لدينا شيئا مهما نفعله وهى ليست آتية معنا. لا نعلم من هى، فقط هى تسير فى الاتجاه الخاطئ".

المعالج: "كونى بن".

إيفانى: "أوكى. أنا بن آتنسيو. عمرى اثنا عشر عاما. جدتى تصتحبنى أنا وأختى لمشاهدة عرض فى المتحف. إنه عرض مخصوص وتريدنا أن نراه. نحن مسرعون حتى لا نتأخر، وجدتى تخبرنا عما سنشاهد. وطوال الوقت تحثنا على الإسراع حتى لا يفوتنا شىء. أشعر بالإثارة بسبب العرض الذى ظلت جدتى تحدثنا عنه لفترة طويلة. كان الدخول صعبا، ويجب أن نمشى مسافة طويلة

حتى نصل إلى المكان الذى يقدم فيه العرض. أتمنى لو لم يكن هناك هذا العدد الكبير من الناس. إنهم يخيفوننى. يمشون بسرعة جدا وهم طوال القامة ولا أستطيع أن أرى الكثير ما عدا وجه آجنس، إنها تتصرف مثل فتاة الآن فلا تضحك ولا تتصرف كبلهاء كعادتها. أنا خائف ومتحمس وأشعر كأننى مجنون لأننى لا أريد المشى بهذه السرعة. أريد أن أتوقف وأنظر إلى بعض الأشياء القريبة الموضوعة فى صناديق زجاجية بطول الحائط. وأريد أن أنظر من النوافذ التى نمر عليها. جدتى تقول يجب أن نحصل على مقاعد فى مكان جيد، لذا علينا الإسراع. إنها تمسك بيدى حتى لا أضيع منها فى هذا الزحام".

المعالج: "كونى آجنس".

إيفانى: "أنا آجنس آنتسيو . عمرى أربعة عشر عاما. أنا أسير بصحبة جدتى وبن فى ردهة طويلة. قاعة واسعة جدا وجميلة ذات نوافذ كبيرة وصناديق زجاجية بها أشياء حلوة. إنه المتحف حيث يضعون الأشياء المخصوصة أمام ناظرى الجميع. أنا معجبة بتلك الأشياء. يوجد أوان وقدور، هناك أشياء مصنوعة من الذهب ومن الأحجار الكريمة من الصين ومصر، أشياء من إفريقيا وأمريكا الجنوبية والمكسيك وأوروبا. لوحات وتماثيل، سجاجيد ومعلقات. أنا مرتدية أفضل ثيابى. حذاء بوت جديد ذى كعب عالى ومعطف

صوفى أنيق. وقبعة مصنوعة من الفرو ناعمة وشكلها حلو جدا عليّ. تجعلنى أبدو كنساء المجلات. جدتى وبن وأنا نسرع الخطى مع كل الناس المتوجهين إلى العرض. إنه عرض لأشياء أثرية، وفيلم. عملوا كل شيء مثلما كانت فى القديم، تقول جدتى، ونحن حقا محظوظون لأننا سنشاهده. أنا سعيدة لأنها تعاملنى كفتاة راشدة. ساعدتنى فى تسريح شعرى واشترت لى هذه القبعة الفرو. أتمنى لو أمي تعاملنى كما تفعل جدتى. أن تأخذنى إلى أماكن وتتحدث عن قصات الشعر والماكياج والملابس. أحيانا تفعل، لكنها لا تهتم كثيرا بهذه الأشياء. أتمنى لو كانت معنا الآن. ستحزن لأنه فاتها. عليها أن تعمل طول الوقت، وهى دائما مشغولة ومتعبة".

المعالج: "كونى الأم".

إيفانى: "أنا سايشو كاويمى. أنا أصطحب أحفادى لمشاهدة عرض خاص فى المتحف. إنهم مثل أبنائى. أنا أبقيهم معى لأوقات طويلة كى أساعد ابنتى. أتمنى لو كانت تستطيع الحصول على مزيد من المال، أن تكون معنا اليوم هنا. إنهم اطفال طيبون مع ذلك. إنها تعمل أقصى ما فى وسعها، وأنا سعيدة لأنى أساعدها فى تربيتهم. أفتقد الأطفال حينما يكونون بعيدا عنى، أن أكون مع الأطفال يجعلنى صغيرة. لديهم طاقة جبارة وفضول عارم للمعرفة. إنهم أيضا يساعدوننى فى أعمال البيت، لذلك أنا وزوجى نسعد بوجودهم. أنا لا

أحب هذا الزحام مع ذلك. الناس يتدافعون ويسرعون. أريد أن أشاهد العرض، وأريد بن وآجنس أن يشاهداه أيضا.

آجنس تكبر. وهي ذكية جدا. ستتطور كثيرا، هذه البنت. جدها دائما ما يقول ذلك. يجب أن نعمل كل شيء كي تحصل آجنس على أفضل تعليم، يقول. ستصنع شيئا من نفسها. هذا ما يقوله. أتمنى أن نصل إلى المكان بسرعة. لقد مشينا طويلا في تلك الردهات. أشعر بالتوهان وسط هذا الحشد من الناس البيض. الكل يرتدي ملابس أنيقة. أتساءل لم لا يبتسم أحد أو يتحدث. أظن أن هكذا هم في المدينة الكبيرة. أتساءل إذا ما تتذكر ابنتي وقت أن اصطحبناها إلى مسرحية في نيو يورك عندما كانت صغيرة. ربما تتذكر، ولهذا انتقلت إلى هنا. المكان هنا ليس بعيدا مثل نيو يورك، وفي نفس الوقت به العديد من الأنشطة. أتمنى أن تأتي إلى البيت في وقت ما، مع ذلك. أفتقدها عندما تكون بعيدة".

المعالج: "كوني المتحف".

إيفاني: "أنا المتحف. أنا ضخم ومهيب. أنا مربع ولامع ونظيف. كل هؤلاء الناس يطوفون أرجائي ويعجبون بي. يشاهدون كم أنا ضخم ومرتفع، كيف أنا مليئ بالأشياء المميزة. تقريبا لدى كل شيء أي شخص يرغب في رؤيته. من كل مكان في العالم. والكثير

من الأشياء هنا ليست معروضة. هناك الكثير والكثير مخبأ بداخلى، فى أقبية ومخازن، أكثر من ذلك المعروض للناس. أنا أمتلك عددا ضخما من الموظفين الذين يعملون هنا ويديرون الأشياء بسلاسة. أنا متراس. قوة. نصف الأشياء المخزونة بداخلى لا يعلم الموظفون شيئا عنها. لا يدركون حجم المعرفة والكنوز التى أمتلكها. لكنى أحرس هذه الأشياء، للوقت الذى سيأتى فيه من يقدر ويفهم قيمة هذه الكنوز الفنية. إنهم يعتقدون أن الأشياء فى قيمتها المادية أو التاريخية. يظنون أنهم سيضعونها جانبا بسبب جمالها. يخشون أن يضيع الجمال. لكنى أعلم حقيقة الأمر، حقيقة مسجلة بحرص فى الملفات. يوم ما ستقرأ هذه الملفات ويدرك مغزاها".

المعالج: "كونى إيفانى".

إيفانى: "أنا ايفانى آنتسيو. إيفانى كاويمى آنتسيو. أنا أهيم فى المتحف الضخم وتائهة بشكل يائس. لا أميز شيئا. لا أستطيع أن أجد طريقي. لا أستطيع أن أرى أى شيء لأن ليس لدى وقت. يجب أن أقابل شخصا ما هنا، لكنى لا أستطيع أن أجده. ليس هنا. يوجد أناس كثيرون، إنهم ظلال. لا يريدون أن ينظروا إلىّ. أنا لا أتعرف على أى أحد هنا. أمشى عكس السير. أنا تائهة وخائفة. يبدون لى مهددين، غريبين. لا ينظرون إلىّ. كلهم فى عجلة من أمرهم وفقط يمرون من أمامى، يتنحون جانبا كى يبتعدوا عن طريقى. لا يريدون

لمسى أو النظر إلىّ وأنا خائفة من أن أوقف أحدهم وأسأل إلى أين هم ذاهبون أو كيف أجد طريق الخروج. الجدران عالية جدا، ملساء جدا. أنا لا أنتمى لمكان مثل هذا. إنه يخيفنى. أنا خائفة منه لأنه ضخم جدا وغريب جدا، غريب جدا. لا أفهم أى شيء أراه هنا. لماذا يضعون هذه الأشياء في مبنى ضخم؟ ألا يستخدمها أحد؟ لأى غرض هذه الأشياء؟ أشعر أنى غبية جدا. أرى أمى وأطفالى. إنهم يمشون فى الردهة. لا يروننى. أناديهم، ألوح لهم، لكنهم يمضون فى طريقهم كما لو أننى لست موجودة. أنا خائفة جدا هنا، ولا أحد يهتم".

المعالج: "قولى لهم ذلك، يا إيفانى".

إيفانى: "أنتم لا تهتمون! أنا خائفة جدا هنا. أنا تائهة وخائفة وأنتم لا تبالون". (الصوت بالكاد مسموع)

المعالج: "أعلى، قوليها وكأنك تعنيها".

إيفانى، تصرخ: "أنتم لا تكترثون! أنا تائهة وأنتم لم تنظروا حتى إلىّ! أنا خائفة جدا وأنتم لا تبالون. أنتم أيها الحمقى الأغبياء المغفلين، كفى تجنبا لى. انظروا إلىّ، اللعنة. انظروا إلىّ!" (تبدأ بقوة، تنتهى تقريبا همسا)

المعالج: "أعلى"!

إيفانى: "انظروا إلىّ! انظروا إلىّ! انظروا إلىّ!" (قالت بصوت أقوى)

تحت التلال السفلية يسير بخطى واسعة

ذات ليلة فى وقت متأخر بعد أن خلدت إيفانى للنوم، وبعد أن نام الأطفال بفترة طويلة، قرع شخص ما الباب. كان جودا. دخل. لم تشعل إيفانى الأضواء. وجلسا فى الحجرة الأمامية المضاءة بإنارة الشارع فى شقتها وتحدثا بصوت خفيض. ساءلت نفسها لم هو موجود. قال إنه فى حاجة لأن يراها. بدأ يقبلها شبه يائس. تحسس ملابسه، فكّ بنطاله. ألقى بملابسه على الأرض ودفعها إلى الأريكة. اعترضت: "لا يا جودا. ليس الآن. لا أستطيع الآن". لم تستطع إخباره أنها حائض. الخجل، خوف مبهم تصاعد بداخلها لمجرد الفكرة. "أرجوك"، كان يتمتم بصوت هامس جدا بالكاد سمعته. "أرجوك". كان هناك ما يشبه النشيج فى صوته.

تركته يدفعها إلى الأريكة. تركته يجثم عليها. أزاح قميص نومها لأعلى، وتحسس لباسها الداخلي، نايلون خفيف، وقصير. بشدة واحدة مزقه، ألقى به جانبا. كان يتأوه باسمها: "إيفانى، أوه إيفانى، أحبك"، كان يقول: "أوه، أرجوك دعينى، إيفانى"، ولمسها

بأصابعه البنية القوية بين ساقيها، أدخل إصبعا فيها، وجد التمبكس وأخرجها، أبعد ما بين ساقيها، وهو يقول المزيد وبقوة أكثر، كترنيمة، كطبلة، "دعيني، إيفاني، دعيني. دعيني إيفاني، دعيني".

ودفع بيده عضوه نصف المرتخي إلى داخلها، وهو ينشج، "اللعنة على هذا الشيء"، لعن وتأوه، "اللعنة على هذا الشيء".

أمسك بكتفيها وألصقهما بالأريكة، وهو يلعن ويشهق بنشيج. دفن وجهه بين نهديها وانتحب.

وفي ظل الضوء الخافت المنبعث من النافذة المظللة نهض ورتب هندامه. شد بنطاله على فخذيه القويين النحيفين، وأقفله بيديه البنية القوية. ربط حزامه ثم نظر لأسفل إلى وجهها الممزق. ذلك الذي صمت وانعزل في عتمة الضوء الشحيح. اقترب منها ولمس شعرها. أنزل قميص نومها إلى رجليها. خرج إلى الليل، عتمة المدينة التي أبدا لا تكتمل. أغلق الباب.

وتركها هناك تفكر في ألمه، ألمها. "لا أريد أن أعيش"، همست إلى الظلال التي انتظرت بهدوء في الغرفة. "لا أريد لهذا الأمر أن يستمر. لا أستطيع إيقافه" قالت ذلك همسا كي لا يسمعها الأطفال، كي لا تسمع نفسها. "لا أريد أن أعيش هكذا مجددا" وبعد فترة

نهضت، وعادت إلى فراشها ببطء وهى تهمس الكلمات التى أتت فى ذهنها.

كن عقبة فى طريقى سأكون عقبة فى طريقك. رقصة ٤٩ (*)

بعد يومين ذهبت إلى البار الهندى. كان الوقت مبكرا والمكان تقريبا خاليا. كان هناك بعض الرجال الذين لم تميزهم على المشرب، يتحدثون بصوت منخفض. كانوا يرتدون قمصان العمل وحلى فضية وفيروزية ثقيلة. تطلع إليها النادل عندما جلست على كرسى البار المرتفع. "مرحبا، إيفانى"، قال. "أعطنى بيرة بد"، أجابت بهدوء حتى لا يلحظها أحد. لم تكن ترغب فى رؤية أى شخص الآن. فقط أرادت أن تجلس فى أى مكان مريح. أن تجلس ولا تفكر بأى شيء على الإطلاق.

أحضر الرجل مشروبها. وهو ينتمى لقبيلة ميوك، طويل وربعة. تدلت خصلة من شعره الأسود على جبهته. وغطت أصابعه العديد من خواتم النافاجو الكبيرة. عاد إلى مكانه فى الطرف الآخر من المشرب بعد أن قدم لها مشروبها، والتقط المجلة النسائية التى كان يتصفحها، وقد انعكست على وجهه المتبلد إضاءة البار الشحيحة.

تطلعت حولها إلى البار المليء بالندوب، طاولات المطبخ البسيطة بجانب النافذة. لم ترغب فى أن تنظر إلى المرآة التى واجهتها. نهضت بقلق، وذهبت إلى طاولة البليارد التى شغلت معظم المكان وبدأت تضرب الكرات. لم تعبأ بأن ترتب الطاولة، فقط ضربت الكرات التى تركها اللاعبون السابقون.

دخل رجل وامرأة. كان الرجل ضخما جدا، وكذلك المرأة. طلبا مشروبين وذهبا إلى طاولة البليارد الأخرى. كانا مخمورين، استطاعت إيفانى أن ترى ذلك، فوضعت عصا البليارد مكانها بحرص وعادت لتجلس على الطاولة الوحيدة بالبار التى حشرت بجانب النافذة الزجاجية.

كان المساء قد بدأ يتقدم والضباب بدأ يستقر فوق المدينة. رشفت بيرتها ودخنت سجائرها، وهى تنظر إلى الرصيف، إلى الشارع.

بدأ الرجل والمرأة يتحدثان بصوت مرتفع، وفجأة انفجرت المرأة فى ثورة عارمة. التفتت إيفانى نحوهما. المرأة تصرخ بحدة الآن. كانت تصيح. "أيها السافل"، صرخت "يا ابن الكلب يا نتن. سأريك، يا وسخ يا كذاب يا سافل". وبدأت تقذفه بالكرات. تكور على نفسه وانحنى متفاديا الكرات وهى ظلت ترشقه. تكسرت المرآة أعلى

المشرب. لم يتحرك أحد. التفت النادل والرجلان الآخران ليتفرجا. كانوا صامتين. ألقت المرأة الكرات بقوة هائلة. تجمدت إيفانى للحظات، ثم اختبأت أسفل الطاولة لتتفادى الكرات التى بدأت تنهمر صوبها. تهشم لوح الزجاج البلورى الذى كانت تنظر من خلاله، وتطاير الزجاج فى كل مكان. قرفصت تحت الطاولة، وهى تمسك برأسها بين ذراعيها. الصوت الوحيد كان صوت الزجاج المهشم، صوت الارتطام الناتج عن اصطدام كرات البليارد بالحائط، بالطاولات، وصوت المرأة التى تسب، وهى تصرخ بألمها وغضبها.

ألقت بكل الكرات، ثم العصى. بغضب وقوة ريح عاصفة. ألقت بكل شىء كان فى متناول يديها، ثم ركضت إلى الباب، حطمت زجاجه الثقيل وصفقته خلفها.

ببطء، بدأ الموجودون فى البار يتحركون. ببطء خرجت ايفانى من أسفل الطاولة، وهى تنظر إلى يديها، ذراعيها، لترى إن كانت تنزف. ببطء بدأ الرجال يتحدثون، يضحكون، وبدأوا يجمعون عصى البليارد والكرات. بدأ النادل يكنس الزجاج. "البار مغلق الليلة يا شباب" قال. "سام، أنت أيها الأحمق، لا تأتى بهذه المرأة وهى مخمورة إلى هنا ثانية".

أومأ سام وهو يترنح، وقد تحول لون بشرته البنية إلى رمادى. "لا، يا جيك" قال. "لن آخذ هذه المرأة إلى أى مكان، مخمورة أو واعية" وبدأ يضحك مخمورا والرجلان الآخران يخبطانه على كتفه. "لا بأس يا جيك"، قالا. "هل تريد بيرة أخرى؟".

ذهبت إيفانى إلى دورة مياه السيدات، رشت قليلا من الماء على وجهها. نظرت فى المرآة إلى عينين تحولا إلى شرطتين لامعتين: "عندك حق يا أختى، استمرى"، قالت. "أنا أعرف بالضبط ما تقصدين".

تأخذ قرارا بالتخلص من الموضوع .

كان مبهرا للغاية. المكان كله، الرخام واللوح المذهب، الفضاءات الفسيحة المرتبة التى لا يشغلها سوى مقعد، السلالم الصاعدة والهابطة إلى حيث لا يعلم إلا الله، خطوات الأقدام غير المسموعة فى الممرات الرخامية الطويلة، القاعات المقببة ذات الظلال. الناس يسيرون بطريقة هادفة، حذرة وقاتمة، عيونهم خفيضة، لا تنم عن أى انبهار.

لكن المكان كان حقا مبهرا، هذا النُصب للسلطة الراسخة، حيث الوضع الملائم هو أن يكون لك هدف، حيث لا تستطيع الأشياء

العادية أن تدخل، لا شىء من الشارع أو حركات المدينة القاتمة، البيوت والهموم اليومية. فى إحدى القاعات، ذات الفضاء الرخامى، وحيث حلقت الأسقف عاليا إلى ما بعد البصر، إلى الزوايا ذات الحواف الذهبية، المنقوشة بالزهور. أعلنت الحروف الذهبية: قاعة السجلات. إيفانى فكرت للحظة فى أساطير جمعية إخوانية سرية، رأت اسمها فى ملف سرى يحوى أدق تفاصيل قلبها، حيث ستجد سر هدفها هنا فى هذا المكان والزمان، وتمنت استعادة ما فقد، ولو فى قاعة هذه المؤسسة المهيبة.

ترتقى السلالم الحلزونية: أكيد ستتسمر آليس مكانها لو كانت خارجة للتو من بلاد العجائب، وسترهب هذا الاستعراض للسلطة الطاغية. الوجود الساكن للدولة، الظل الذى بدون ملامح للسلطة، للقوة، لهؤلاء الذين يتحكمون، لأنهم رأوا أن من المناسب أن يقبروا أنفسهم وشرفهم المقدس فى الكهوف الضخمة فى قاعة المدينة. لا سياسيون يتبخترون، أو يقفون فى القاعة ينمون كما يفعلون فى البيوت، حتى ولو كانوا متغضنين قليلا نتيجة العمل. لا أحد يقف أو يجلس على مقاعد جلدية يتبادلون المصالح، ينمون، ويقهقهون. لا شاب صغير أو جبان يتسكع بين تلك الأصداء ذات الذوق الرفيع. فقط الموظفون والإداريون يعدون فى صمت هنا وهناك، ورجال

تتدلى حقائبهم برجولة بجانبهم، متقزمون بما يتناسب مع الضخامة الساكنة، غير ذوى أهمية.

إيفانى وجدت محاميها أخيرا. كان ينتظرها حيث ارتفعت القبة ذات الوريقات المذهبة. فقدت الكثير من إحساسها بنفسها أثناء تجوالها بالقاعات الرخامية، لكنها استطاعت أن تلحظ أن المكان كله مركب بحرص، بحيث يخلق ذلك الوهم بالسلطة القوية، الخالدة. بطريقته الخاصة، كان المكان يشبه رقصة مقنعة. كهانه وشاماناته يرتدون أزياء مختلفة، يقومون بحركات مختلفة، لكن تأثيره المقصود هو ذاته. شعرت بأنها تائهة بعمق، حالة ملائمة تماما بالنظر إلى المناسبة ذاتها.

رفع محاميها يدا، مشيرا لها. يرتدى بذلة على الموضة، له شارب أشيب حسب الموضة، كان يحاول أن يعطى الانطباع بالأناقة والراحة، أن يلقى ببعض من رونق اعتزازه الشخصى بنفسه على الجدران والأرضيات البيضاء الباردة لهذا المكان غير الإنساني. لكن جسده النحيل ونضجه الناقص جعل محاولته غير ذات جدوى، مثل محاولتها. "مرحبا"، قال، مبتسما.

"المكان رائع"، قالت إيفانى وابتسامة عريضة على وجهها.

حملق فيها، بعينين أزيح زجاجهما لبرهة، لتظللهما ثانية ومضة العمل. "ألم تأتى إلى هنا من قبل؟" سأل، مبديا اللامبالاة، مدعيا أنها تقول شيئا سياحيا بدلا من الشىء المطلوب تماما. وكان من الصعب متابعة الادعاء، فكرت، بالنظر إلى طريقة لبسها. فقد ارتدت الشال المزين بالزهور ذى الشراشيب الحريرية الذى اشترته من مسقط رأسها وارتدته باستمرار منذ مجيئها إلى المدينة. وغطى الشال قميصا أرجوانيا وجينزا من النوع الذى يلبس فى المزرعة ماركة ليفيس. ارتدت حذاء جلديا بدون نعل. ليس غاليا لكن أنيقا، ذلك البسيط الذى اشترته من السوق قرب بيتها. "لا، لم آت إلى هنا من قبل"، قالت وهى تقاوم الرغبة فى شد الشال على رأسها ووجهها. "أعتقد أنه واحد من أغرب الأماكن التى رأيتها"!

توجها إلى المصعد ودخلاه. الصندوق الصغير المفروش بسجادة قاتمة اللون كان إطاره عبارة عن أبواب معدنية مطلية بلون الذهب.

"القاضى سيكون هنا فى دقائق"، قال المحامى. شد ربطة عنقه بحرص. شيء ما يخص القضاة يجعله يتأهب، فكرت إيفانى. "سيسألك بعض الأسئلة"، أضاف الشاب، "لكن لن يستغرق الأمر طويلا".

"ها هى ورقة ترتيبات الملكية والتوقيعات"، قالت إيفانى، وهى تناوله ورقة من النوع الرخيص بدون سطور. أبدو عملية تماما، فكرت، بالنظر إلى الغضب الذى بالكاد تتحكم فيه والرعب الذى أملاه كتابة هذه الورقة وإرغام جودا للتوقيع عليها. بالنظر إلى غضب جودا المصطنع أو الحقيقى من الموضوع برمته، لم يكن يرغب فى الطلاق، هى تعرف ذلك، رغم أنه تركها وذهب مع نساء أخريات. هو أيضا كان يريد أن يستمر الإناء فى الغليان فى البيت. حسنا، فكرت، انطفأت النار. أنا لا أريد أن أدفع فواتيره بينما يتسكع هو ويقضى وقتا طيبا. وابتسمت ابتسامة عريضة لتلاعبها بالألفاظ بشكل لاواع.

"الممتلكات مقسمة بالتساوى، أليس كذلك؟" نظر إليها المحامى، دون تعبير.

عضت شفتها. "ليس تماما".

"أوه؟" نظر إليها متفاجئا.

"بالنظر إلى أننى أدفع الفواتير وهو يستمتع"، هزت كتفيها وشدت الشال حول كتفيها وصدرها.

"أوه. " حملق الشاب الصغير ذو الشارب فى الثقب الدائرى على الأرضية. استندا إلى الحاجز النحاسى المصقول الذى يلف قوائم

القاعة المستديرة. "لكن، عدا ذلك"، قال وهو ينظر بعناد وتصميم على أن ينتهى من هذا الأمر.

"أكيد"، قالت. "كل شيء تمام".

"وتدركين أنه بتنازلك عن حق النفقة أنت تتنازلين عنها مدى الحياة. لا تستطيعين فيما بعد أن تطالبى بها".

أومأت برأسها. جودا يعولنا ونحن مطلقان فى حين لم يفعل ذلك عندما كنا زوجين، فكرت. صاحت بصوت مرتفع، "نعم، أدرك ذلك" صوتها كان عميقا وخشنا.

"حسنا"، قال المحامى، "طالما أنك قادرة على إعالة نفسى"، أنهت فكرته بصوت خفيض. وهو والأطفال وأى آخر قد يأتى فيما بعد، فكرت. أنا أدفع مقابل محبتى وأرفض أن أدفع عندما يرفضون تلك المحبة. اللعنة.

ابتسمت ببرود للمحامى.

دخلا قاعة المحكمة. انتظرا القاضى. المحامى كان متوترا. هى كانت متوترة. أطبقت فكيها بإحكام. أرادت أن تدخن، لكن التدخين ممنوع فى قاعة المحكمة. لا يمكن أن تكونى مرعوبة وأنت مسترخية وسيجارة فى يدك، فكرت.

امرأة خمسينية تضع مساحيق تجميل كثيفة على وجهها الأبيض الشاحب دخلت القاعة. بدت أسمن وأكبر فى السن بسبب تلك المساحيق ورداء السكرتارية المهندم التقليدى والحذاء ذو المقدمة الرفيعة الذى تنتعله. توجه المحامى إليها وقال شيئا لم تسمعه إيفانى. "الساعة التاسعة" قالت المرأة، وهى تلم أوراقا بانشغال.

الحاجب، أيضا متقدم فى السن، أبيض أيضا كمريض، تثاءب.

دخل رجل يرتدى بذلة وجلس أمام ماكينة الكتابة الاختزالية. كان بدون أسنان، التصقت شفتاه باللثة. بذلته الرمادية الباهتة تلاءمت مع جلده الشاحب.

إيفانى انتظرت، يداها مشبوكتان فى حجرها، حذاؤها يتدلى من على المقعد. اللعنة، دائما ما يصنعون مقاعد على مقاس التكسانيين، فكرت. الهنود قصار القامة. على الأقل نوعى.

"ستصعدين إلى هناك" قال محاميها. "إلى هناك بالقرب من القاضى" أشار إلى مقعد الشاهد الصغير والمركون بإهمال بجانب المكتب الضخم للقاضى فى الطرف الآخر من القاعة المستطيلة المواجه للمكان الذى جلسا فيه ينتظران. بدا المقعد منعزلا ومتواضعا. كان هناك ميكروفون أمامه.

"كل هذه المسافة إلى هناك" قالت بصوت آلى.

"نعم". ابتسم لها المحامى ابتسامة خاطفة. كشف لها عن أسنانه فى الواقع. ظل قلقا من القاضى. "لا أعلم ما هى الأسئلة التى يحتمل أن يسألها، اليوم. القاضى مازر واحد من القضاة الأذكياء القليلين"، أضاف، وهو يحاول طمأنتها بنبرة صوته العارفة، "لكنه أحيانا انتقائى. إذا استيقظ بمزاج عكر".

التوت معدة إيفانى. كانت تريد أن تضحك. أو أن تخبر الشاب الجالس بجوارها أن الأمر برمته سخيف ثم تخرج. التقطت جريدة من على المقعد المستطيل الذى جلسا عليه وبدأت تقرأ الصفحة الرئيسية.

"تعقد الجلسة. قضية رقم ٦٥١٠٧٩. " قرأ المحامى الرقم المطبوع على الملف الذى بين يديه". يوشورى ضد يوشورى" أشار لها أن تتحرك صوب الأبواب، عبر الطاولات حيث جلس كاتب الاختزال والسكرتيرة، عبر مكان المحلفين الخالى، ترتقى الدرجات وتجلس بجوار مكتب القاضى.

أطاعت وهى تحنى رأسها وتشد الشال إليها. كانت منتبهة إلى صوت الوشوشة الذى يصدره نعلها على الأرضية وهى تسير فى الطريق إلى الدرجات، صعدتها وجلست. تأرجحت شراشب الشال

وهي تتحرك، كما فى رقصة سكاو. تبعها المحامى ووقف أمامها على مسافة مطمئنة. يردد بصوت منخفض الأسئلة التى راجعاها معا.

أجابت على كل سؤال بصوت واضح وقوى، لتفاجئ نفسها بقدرتها على التحكم. القاضى، رجل ضخم أشيب الشعر، لم يزح بصره عن الأوراق الموضوعة أمامه. تشتت إيفانى تقريبا تام. كانت دائخة للغاية، حواف بصرها غائمة ومظلمة. ركزت عينيها على القاضى الذى كان متقدما فى السن، مثله مثل الحاجب، كاتب الاختزال، السكرتيرة. لم يرفع بصره على الإطلاق طيلة الوقت. لاحظت أنها ومحاميها وعميلة أخرى- امرأة جميلة من الشيكانا- ومحاميها كانوا الوحيدين دون سن الستين. تعجبت إن كان ذلك ذا أهمية. هى والمرأة الشيكانية الوحيدتين غير البيض فى تلك القاعة الضخمة التى يتردد الصدى فيها.

"المحكمة توافق بشكل غير نهائى. ضع الأوراق فى ملف فى قاعة ٣١٧" قال الرجل الأكبر للرجل الأصغر. ضغط كاتب الاختزال بصمت على آلته دون أن ينظر.

"يمكنك الانصراف" قال لها القاضى.

نزلت الدرجات، مرت أمام السكرتيرة العجوز، الطاولات الطويلة الخالية، عبرت من الباب، وهى تنظر إلى المحامى الأشقر

الشيك الذى يشير إلى عميلته نحو مقعد الشاهد فى الطرف الآخر من القاعة المستطيلة جدا حيث نودى على قضيتها. "باشيكو ضد باشيكو" أعلن الحاجب. المرأة الصغيرة السمراء مشت كل المسافة إلى مقعد الشاهد الصغير المنعزل، عبر القاعة الضخمة الخالية تقريبا. أغلقت إيفانى باب قاعة المحكمة ورائها.

تعليقات:

* إيبتيكو. أم شعب البيبلو. بيتها يقع فى العالم السفلى، ويمكن الوصول إليه عبر الشيبابو حيث اعتاد الناس العيش. امرأة القمح أو الأم القمح. الأم القمح منحت الناس الحياة فى بعض حكايات الخلق عند بعض القبائل. هى جزء من الحكايات الأولى، لأنها علمت الناس كيف يزرعون القمح وكيف يستفيدون منه فى أشياء عديدة ، وكيف يحافظون على الحياة. إنها رمز الأنثى الرئيسى.

* جوادالوب. بلدة فى نيو مكسيكو تقع على الحدود بين نيو مكسيكو وأريزونا، على تخوم محمية نافاجو. معروفة بكثرة حاناتها، جرائم القتل، الحوادث والمتاجر باهظة الأسعار، صارت مرادفا لتدهور الحياة الهندية. تسعة وأربعون. الـــ ٤٩ أو تسعة، رقصة هندية حديثة غالبا ما يؤديها الشباب الآن، تبدأ بعد منتصف الليل وتمتد حتى الفجر.

* لا يعلم أحد فى الحقيقة من أين جاء المصطلح، لكن الغالبية يعزون الرقصة بكلماتها الممزوجة بالإنجليزية إلى أوكلاهوما فى بداية القرن. الألحان والتصميمات من أغانى الحرب الخاصة بقبائل كيوا، كومانش، وبونكا.

محطة الوزن

لويز إردريتش

كنت جالسة وأمامى الكأس الثالث أو الرابع من مشروب جيلى الفول- هو عبارة عن ينسون، بيرة شعير، عود ثقاب مشتعل، انفجار رطب فى المخ. على يسارى جلس جيرى نانابوش(*) من قبيلة شيبيوا. على يمينى جلست دوت آدار من قبيلة الذين- كانوا، لم- يكونوا- أبدا، الذين- أمام- ى. وفى بطنها طفل اتحادهما متكور بعد فى سوائلها، الطفل الذى كنا ننتظره، الطفل الذى كنا نبحث بدأب عن اسم له فى بار ضيق وغير مرتب فى طرف مدينة داكوتا.

جيرى أمضى ثلاثة عشر عاما يجر عربة. كان يشرب ماء صودا من كأس طويلة طفا عليها هلال ليمونى ومضاف إليه عصير كرز مختمر. كان يبلغ من العمر ستًا وثلاثين عاما، نصف هذا العمر بالتمام أمضاه داخل السجن أو خارجه أو هاربا منه. لم ولن يبرأ من كونه موضع اتهام: لذا أنزل ربطة رأس لاعب التنس على جبهته حتى لامست حواف نظارته. البار كان معبقا بالدخان وشاحب

الإضاءة، نظارته كانت غامقة جدا. إمكانية الرؤية الشحيحة لابد وأن كانت السبب الأول فى أن يراه الضابط لافشيك.

خطا لافشيك نحونا ويده على فخذه، لكن جيرى خرج بسرعة من الجانب الخلفى للبار الذى يشبه الكشك قبل أن يتمكن لافشيك من الاقتراب منا والتأكد من هوية جيرى.

" تفضل معنا" قالت ذوت لـــ لافشيك عندما اقترب من مجلسنا. "سأعزمك على مشروب. المكان ميت هنا. لم يأت أحد طيلة الليل".

تنهد لافشيك، جلس، وطلب براندى.

"الآن أخبرني" قالت وهى تحدق به، "بأمانة. ما رأيك فى اسم وجه الكاتشب؟"

قابلت دوت أول مرة عن طريق جيرى، فى بار يشبه هذا البار، لكن أزحم، معظم رواده من عمال بناء الطريق السريع. جلست بجوار جيرى فى بداية المساء وبدأنا حوارا، ومع النقاش صرنا ودودين بدرجة تسمح لجيرى بأن يلف ذراعه حولى. دخلت دوت فى اللحظة الخاطئة تماما. كانت سريعة الانفعال، ونظرا لكونها حامل (جيرى جعلها حاملا أثناء زيارة السجن منذ خمسة أشهر) فقد صارت أكثر توترا. لذلك كان طبيعيا، أعتقد، أن تسحب كرسى البار

من تحتى وتهدد حياتى. الأمر ببساطة أننى لم أكن أعلم حينها أنها كانت تشكل خطرا. لم أكن أعرف أى شخص مثل دوت، لذلك لم أكن أعرف أنها جادة.

"سأشوه خلقتك" قالت وهى تضغط بيديها فوقى. كانت يداها صغيرتين، عريضتين، قادرتين، بأظافر حادة. اعتدت أن أفعل الشىء الخاطىء أحيانا أثناء الشرب، وفى تلك المرة تصرفت بشكل خاطئ رغم أننى كنت ممددة على الأرض تحتها. بدأت أهزأ منها بسبب يديها اللتين كانتا صغيرتين جدا. (رغم أنهما يبدوان قويتين ومصممتين، كان يجب أن أنتبه أكثر لذلك). كانت على وشك الانقضاض علىّ، بجسدها الضخم وبطنها المنتفخة بحمل مدته خمسة أشهر، إلا أن جيرى أمسك بها فى منتصف الهواء وحملها للخارج وهى تصرخ. فى اليوم التالى استلمت العمل. كان أول يوم لى فى العمل الجديد، ولم تكن المرأة الأخرى الموجودة فى موقع البناء سوى دوت آدار.

فى اليوم الأول نظرت دوت إلى وشذر يتطاير من عينيها من مسافة. كانت تعمل فى غرفة الوزن وأنا عملى يتلخص فى الضغط على أزرار على سير التوصيل. كل ما كان يتطلب منى عمله هو تظبيط السرعات على السير للرمل، الصخور، أو الحصى، والتأكد من أنها موجهة إلى الكومة الصحيحة. كان هناك هرما من كل نوع

من المواد، التى تستخدم فى الخلط مع الأسمنت. عبر الساحة الفسيحة رأيت دوت تخرج من غرفة الوزن البيضاء الصغيرة بين الحين والآخر. لم أعرف إذا كانت قد ميزتنى أم لا، لكن مع انتهاء اليوم أعتقد أنها لم تعرفنى. لكنى وجدت الأمر مختلفا صباح اليوم التالى عندما ذهبت إلى شاحنة الشركة لتناول القهوة.

وجدتنى بجانب الشاحنة بعيدا عن الرجال، ولم تقل شيئا، فقط -أمسكت بمدية ورفعتها إلى حيث أستطيع رؤية نصلها موجه نحوى، ولوحت بطرفها الحاد. كنت مذهولة تماما. وكنت قد وضعت الغطاء البلاستيك فوق كوب القهوة التى شعرت بسخونتها بين أصابع.

"حسنا، أنا آسفة لأنى ضحكت". قلت. تراجعت للوراء. أزحت الغطاء عن كوب القهوة وأخذت رشفة، ثم قلت الشىء الخطأ مرة أخرى.

"ولم أكن أجرى وراء صديقك".

"لم لا!" قالت باندفاع. "ما به"!

وجدت أننى سأخسر هذا الجدل بغض النظر عن أى شىء أقوله، لذا، ولمرة واحدة، فعلت الشىء الصحيح. قذفت القهوة فى وجهها وجريت. قرب نهاية اليوم خرجت دوت من غرفة الوزن

وصاحت "حسنا إذن!" كنت قريبة بدرجة تسمح لى أن أرى أنها ابتسمت. لوحت لها. منذ ذلك الوقت وصاعدا تحسنت الأمور بيننا كثيرا، لحسن الحظ، لأنه اتضح أننى أفضل ضاغطة أزرار وبعد أسبوعين تمت ترقيتى للعمل فى غرفة الوزن، لمساعدة دوت.

والأمر ليس أن دوت فى حاجة إلى المساعدة فى وزن الشاحنات، لكنها الشكليات بالنسبة لإدارة الطرق السريعة. لم أستطع أن أفهم ذلك مطلقا، إذ يبدو أن دوت كانت الشخص الذى يزن الشاحنات وفى نفس الوقت مفتش الوزن لفترة ما إلى أن انتبه شخص ما إلى ذلك. لقد تم تعيينى من قبل الشركة لوزن الشاحنات، ودوت تم تعيينها من قبل الولاية للتأكد من أننى أسجل الأوزان الصحيحة. والحقيقة أن عمل دوت الواقعى كان النوم، شغل الإبرة، أو الأكل طيلة اليوم. وأنا كنت أعمل نفس الأشياء بين كل حمولة وأخرى. لم أكن مضطرة حتى للنهوض من على الكرسى لوزن الشاحنات، فذراع الميزان كانت ممتدة أمامى بحيث تظهر قراءة الأوزان أمام عينى. وشاحنات الشركة ذات القلابات الخلفية، الباطنية، الصفراء كانت تقف بجانب غرفة الوزن. كنت أسجل أوزانها على قصاصة وردية، أشبكها بدبوس ملابس ثم أناولها للسائق. وكنت أحتفظ بنسخة من القراءة على قصاصة صفراء وأضعها فى علبة معدنية- ولم يأت أحد أبدا

لجمع تلك القصاصات الصفراء، لذا لم أعرف لوجودها سببا. لكن الشركة كانت تدفع لى أجرا مجزيا.

كان ذلك فى بداية شهر يوليو عندما بدأت دوت وأنا العمل سويا. فى الأول جلست بعيدا عنها قدر الإمكان ولم أرفع نظرى عن الإبر التى كانت تستخدمها فى عمل التريكو، بالرغم من أن مشاهدتها وهى تعمل كانت تسبب لى دوارا خفيفا. ولم يستغرق الأمر طويلا إلى أن وصلنا إلى اتفاق، شعرت بعده بالراحة مع دوت. هى كانت صريحة، وأخبرتنى مباشرة بأن هناك ثلاثة أشياء تجعلها غاضبة. الأول أن تغازل امرأة جيرى. الأمر الثانى تعليق السجائر (شخص ما دائما فى حالة إقلاع عن التدخين لكن يدخن سجائرك). الأمر الثالث هو بول النملة. سألتها عن ذلك. "بول- النملة" قالت، "هو رجل بكعكة سمينة يحاول أن يبيعك أى شيء، ظبى، طائر، أى شيء" دائما ما عرفت موقفى مع دوت، لذا وثقت بها. وعرفت أنه إذا سقطت من نظرها فإنها ستهددنى وتمنحنى وقتا كى أهرب قبل أن تقوم بأى فعل جسمانى ضدى.

مع منتصف يوليو صارت غرفتنا غير محتملة، بسبب الحرارة التى كانت تهب على الغرفة من الساحة العارية. فكنا نجلس خارج الغرفة معظم الوقت، نتحرك حول الغرفة تبعا لبقعة الظل، ونجعل الريح الساخنة تمتص العرق الذى كان يتصبب تحت إبطنا

وأرجلنا. لكن المواسم تتغير سريعا فى داكوتا الشمالية. أمضينا اليوم الأخير في شهر أغسطس نقفز على أقدامنا المنملة قبل أن يأتى حادجي، كبير العمال، ساحبا وابور بأنبوبة غاز إلى الغرفة. أشعل الطارة، ومنذ ذلك الحين جلسنا بالقرب من المدفأة- نأكل، نغفو، أو فقط نرتاح فى دفئها المشع الصغير.

فى تلك الأثناء بلغ وزن دوت حوالى ٢٠٠ رطلا، معظمه أكواب زبدة فول السودانى وسندويتشات سلطة البيض. كانت امرأة قصيرة وعريضة بعيون صفراء مسحوبة وفواصل بين أسنانها القوية. عندما ابتدأنا العمل معا كان شعرها قصيرا. ومع حلول شهور البرد طال شعرها في خصلات معقودة، بنيا عند الجزور، برتقاليا عند الأطراف. لكن الصبغة البرتقالية لم تتناسب مع لون بشرتها. وفى ذلك الوقت أيضا استدارت بطن دوت واكتمل حملها، فقد كان موعد وضعها في أكتوبر. الطفل كان كمن ركب على جدار بطنها فكانت تجلس وتريح ذراعيها عليه وهى تشتغل التريكو. أحد أعمال دوت المجيدة والغريبة هو تحويل عمل لطيف كالتريكو إلى عكسه. كانت تحيك بشكل شرير، تلف الخيط حول سبابتها إلى أن يبيض طرف الخيط، وهى تشد كل غرزة بقوة، وعندما انتهت كان اللباس الذى عملته أشبه بالمنمنات.

ومع ذلك ظننت أن الطفل سيحتاج إلى هذه الغرز المحكمة عند ميلاده. ورغم أن دوت، كأم منتظرة، كانت تعيش حياة هادئة الى حد كبير، فإنه من الواضح أنها تحركت وسط عناصر خطرة. فالطفل مثلا، تكوّن فى حجرة الزيارة فى سجن الولاية. جلست دوت على حجر جيرى، فى زاوية لم تلتقطها كاميرا المراقبة. ومن خلال فتحة فى لباسها الداخلى وفتحة فى جينز جيرى تمكن الاثنان من الجماع وبمعجزة، حملت دوت. عندما تأكدت دوت من أنها حامل، هرب جيرى من السجن ليراها. بعد فترة قصيرة من محادثتى مع جيرى فى البار تم القبض عليه. هذه المرة عاد إلى السجن بهدوء، ولم يشتبك فى شجار. كان فى الإصلاحية كعقاب للهرب منها، حيث أن جريمته (اعتداء وضرب وعمره ثمانية عشر عاما) حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات وخروج مبكر فى حالة حسن السلوك. لكنه لم يتمكن أبدا من تمضية السنوات الثلاث أو أن يسلك سلوكا حسنا. هرب مرة تلو الأخرى، وكان يُقبض عليه فى كل مرة، بشكل دروى ومنتظم انتظام عمل الساعة.

جيرى كان موهوبا فى كيفية الهرب، هذه حقيقة. كان يفاخر بأن لا عائق صلب كان أم أسمنت يستطيع أن يقف فى وجه أحد من قبيلة الشيبوا، وكان يمتلك صفات سمك الأيل المسحوب برغم جسده الضخم. ذات مرة، وهو مدهون بشحم الخنزير، تلوى على حائط

سجن سمكه ست أقدام واختفى. اعتقد البعض أنه علق هناك للأبد، وأنه سيجلب الحظ كعظام العبيد المطبوعة على سور الصين. لكن جيرى دلك معدته لجلب الحظ ولم يجلب الحظ لشخص آخر، فقد ظهر فجأة أمام باب بيت دوت وضغط عليها بشدة كى تخبئه.

تمكنت دوت من إخفائه لمدة شهر تقريبا. أن تخبئ هنديا طوله ست أقدام ويزن مائتي وخمسين رطلا فى وسط بلدة لا تحب الهنود من الأساس ليس بالأمر اليسير. إن شهرا يعد إنجازا، خاصة عندما تعرف ماذا كانت تنوى. قضت معظم وقتها تمشى من وإلى متجر البقالة، تجر قدميها المنتفختين، لتذهل جيرانها بحجم ما كانوا يعتقدونه شهيتها. شرائح من لحم الخنزير، مشاوى ومقالى اختفت فى ليلة، ونظرا لأن جيرى لا يستطيع إلقاء القمامة فى النهار، فقد كان يلقى بالعظم أحيانا من الشباك، حيث بدأت الكلاب تتجمع وتتعلم أن تنتظر ما يلقى إليها وتتعارك عليه.

وأخيرا اشتكى الجيران، ويوما ما، حين كانت دوت فى العمل، قرع لافشيك على باب البيت المقطورة. فتح جيرى الباب، تنهد وذهب إلى سيارتهم. كان بارعا فى الخروج من المفصلة وسيئا جدا فى القبض عليه. كما لو أنه لا يستطيع البقاء بعيدا عن متناول يدهم. دوت كانت تعرف مشكلته، وأخبرته أنه مجنون إذ يعتقد أن بإمكانه أن يهرب من السجن ثم يعيش حياته كشخص طبيعى. دوت

أخبرته أن ذلك لا ينفع. قالت له أن يبتعد لفترة ويذهب إلى المحمية، أى محمية، أن يغير اسمه، ورغم أنه لا يستطيع أن يطيل لحيته، لكن على الأقل يستطيع أن يترك الشعيرات التى فوق شفته تنمو وتصبح شاربا ما ليغير قليلا من ملامحه. لكن جيرى لن يفعل ذلك.

كان يعرف ببساطة أنه لا ينتمى لعالم السجن، رغم أنه أقر بأن السجن علمه أشياء مفيدة وهو فى الثامنة عشرة من عمره، عندما لم يكن يعرف كيف يكون مجرما، ولذا أخذ دروسا من المجرمين المحترفين. والآن بعد أن تعلم كل ما هنالك للتعلم، لم يعد يرى مغزى أن يبقى فى السجن وأن يتعلم نفس الدروس مرة أخرى. "مصنع- كراهية" هكذا أطلق عليه مرة، وقال إن السجن أنتج سموما سوداء فى معدته لم يستطع التخلص منها، رغم أنه وضع إصبعه فى حلقه واستفرغ وحاول أن يكون إنسانا طبيعيا ونظيفا رغم كل ما حدث. مشكلة جيرى، كما ترى، أنه يؤمن بالعدل وليس القوانين. فقد شعر أنه دفع ثمن جريمته، التى وقعت فى حمية الشرب ولحسم مسألة ما إذا كان شخص من قبيلة الشيبوا زنجيا أم لا، تلك المسألة التى أثارها راعى بقر. جيرى قال بأن الاثنين لم يتوصلا إلى حسم المسألة بينهما، لكن راعى البقر يعرف جيدا أنه إذا أطلق وصف الزنجى على شخص من الشيبوا فإن الموضوع سينتهى إلى شجار عنيف. فجيرى لم يكن يؤمن بالشجار إلا حسب قوانين المحمية،

وذلك يعنى أن أول شيء يفعله جيرى هو أن يرفس خصيتى راعى البقر، بعد أن تعادلا.

ما حدث بعد ذلك لم يكن شجارا بالمعنى الحرفى، ونظرا لوجود شهود من البيض والهنود على السواء فقد فكر جيرى بأن الوضع سيزداد سوءا إذا ما وصل الأمر إلى المحكمة. لكن ليس هناك أمر يستدعى الانتقام بشراسة فى هذا العالم مثل راعى بقر بخصيتين متورمتين، وهذا ما اكتشفه جيرى عاجلا. كذلك اكتشف أن البيض يعتبرون شهودا جيدين لصالحك، نظرا لكونهم لديهم أسماء، عناوين، أرقام تأمين اجتماعى، وهواتف عمل. لكنهم كانوا شهودا بشعين إذا كانوا ضدك، تقريبا على نفس درجة السوء إذا كان شهودك من الهنود.

فبالإضافة إلى أن أصدقاء جيرى كانوا يفتقدون إلى كل أشكال التعرف على الهوية باستثناء بطاقات قبيلتهم(*)، ويختفون (ليس من قبيل الحقد، لكن بسبب أن محاكمة جيرى تمت أثناء احتفال الباواو)، فإن القلة التى استطاع أن يستشهد بهم لم يكونوا مهتمين بالنظر فى عين القاضى أو المحلفين. غمغموا فى حجرهم. فأصدقاء جيري، كما ترى، لا يثقون فى النظام القضائى للولايات المتحدة. لم يبد عليهم الشعور بالراحة فى قاعة المحكمة، وهذا رفع من درجة عدم مصداقيتهم فى أعين القاضى والمحلفين. إذا كنت تثق بالسلطات، تثق

السلطات بك فى المقابل، هكذا تبدو الأمور. أو هكذا بدا الأمر لجيرى على أية حال.

طبيب محلى شهد لصالح خصيتى راعى البقر، وأفاد بأن خصوبة الرجل من الممكن أن تكون قد تأثرت سلبيا. تضايق جيرى إلى حد ما بسبب هذا الكلام، وقال على الفور فى قاعة المحكمة إنه لا يصدق أنه قد سبب هذا الضرر لهدفين صغيرين جدا كخصيتى راعى البقر، وأن الوقت كان ليلا، وقد أخطأ فى إصابة هدفه فى كل الأحوال، لأنه قد شرب بيرتين أو ثلاث. ما قاله جيرى زاد الأمر سوءا، بالطبع، ونال جيرى عقوبة ثقيلة بالنسبة لفتى فى الثامنة عشرة من عمره، لكن ليس بالنسبة لشخص هندى. البعض قال إنه محظوظ.

شيء واحد إيجابى نتج عن هذه التجربة، قال جيرى، وهى أنه ربما لا يستطيع راعى البقر أن ينجب أى رعاة أبقار صغار، رغم أن جيرى قال أيضا، إنه تنتابه كوابيس أحيانا يرى فيها راعى البقر قد أنجب رعاة بقر صغار، كلهم بأسنان عريضة، وقبعات رعاة البقر، وخصيات صغيرة صلبة كالبرقوق.

ولهذا فقد كان الأمر صعبا بالنسبة لجيرى، كونه هنديا، أن يحتفظ بحس الطُرفة التى تمتع بها أجداده فى هذه الأزمنة الحديثة. ومع ذلك، فقد حاول، وبما أنه يؤمن بالعدل، وليس بالقوانين، فقد

عرف جيرى إلى من ينتمى (خارج السجن، وفى حضن عائلته الجديدة). ورغم حقيقة أنه غير متدرب على الحياة الشريفة، فإنه أرادها. حتى أنه رغب فى الحصول على عمل. ولم يكن مهما أى نوع من العمل. "أى شيء من أجل التغيير"، جيرى قال. أراد أن يذهب فورا والتقدم بطلب للعمل، لحظة أن خرج من السجن. لكن دوت لن تسمح له بالطبع. ونظرا لأنه أراد أن يكون مع دوت، ظل مختبئا في مقطورتها السكنية رغم أن كليهما كان يعرف أن الأمر لن يستمر طويلاً وأن الشرطة سوف تبحث عنه وتسأل الجيران، أو أن الجيران سيبلغون عنه، وأن جيرى نانابوش سوف يعود مجددا إلى السجن. وهذا ما حدث. لافشيك جاء من أجله. ودوت صدقت الآن أنها ستستكمل الفترة الباقية من حملها والولادة بمفردها.

دوت كانت غاضبة أنها ستمر بتلك المرحلة لوحدها، بالإضافة لذلك، كانت تحب جيرى حبا عميقا وحقيقيا- هذا كان واضحا جدا. نسجت غيابه على هيئة ملابس صغيرة للطفل، ملابس تستطيع إيقاف شاحنة على طريق مظلم بسبب ألوانها الفاقعة- بمبى بازوكا، أزرق كدمات، برتقالى صارخ.

الطفل كان غير مستقر، كسجين مثل أبيه، وصار أكثر قلقا وتمردا عند اقتراب خروجه. فالمكان الذى قضى فيه تسعة أشهر، بطن دوت، ليس بالمكان الرائع. فجسدها لم يكن مضياقا. وجلدها

كان مترهلا وشاحبا، تهدل مثل حشو تنجيد على هيكلها العظمى العريض. مثل الغرفة التى أمضينا أيامنا بها، كانت تبدو بلونها البنى الذى يشبه لون جيرى، كمن ألقى إلى العالم بأطراف مخلخلة ومفاصل مفككة. بعض النساء الحوامل تبدو بطونهن وكأنها كانت دوما موجودة. أما بطن دوت، فقد اتخذت شكلا غريبا، تقريبا مربعة، على شكل نافذة جديدة، غير مطلية، مطلة على الخليج. وكان من الواضح أن الطفل أصبح مستعدا للخروج وغير مستعد للحوار، فقد ظلّ يرفس بداخلها طول الليل إلى أن أقسمت، "يريد الخروج، أمر سيىء" دوت كانت تتأوه. "هل تعتقدين أنه سيكون مبتسرا؟" على كل حال، من الخارج، يبدو الطفل كبيرا بدرجة تسمح له بالوقوف والمشى وحتى الركض من رحم الأمومة مباشرة.

الشمس، فى ذلك الوقت، كانت تشرق حوالى الساعة السابعة ونحن نصل إلى غرفة الوزن والصقيع لم يزل كثيفا على الممر. كل صباح أشعل المدفأة التى تعمل بالغاز، أدير فوهتها، وأقف فى الخلف أقلب عود الثقاب من جانب لآخر كمن يغوى حيوانًا له مخالب بالطعام. وذات صباح رأيت الشعلة الحمراء من النافذة، مشعلة بالفعل. لكن عندما فتحت الباب، كانت غرفة الوزن خالية. وكان هناك آثار لشخص أتى فى الليل- أعقاب سجائر، علب بيرة فارغة مطبقة. كنست تلك الأشياء ولم أقل شيئا لـــ دوت عندما وصلت.

بدا عليها أنها تستشعر شيئا ما مع ذلك، كانت ترفع رأسها بين الحين والآخر طوال ذلك الصباح. كانت تتنشق، وحتى أنا استطعت أن أشم رائحة عرق كشعير حامض، تلك الرائحة التى تصدر من ملابس استخدمت للنوم. وحدث أن نظرت دوت إلىّ، ذلك الصباح، وضيقت حدقتيها. "أشعر بالألم"، قالت، "على فترات متقاربة. كأنى سألد فى أى لحظة. حسنا كل ما أستطيع قوله إنه يجدر به أن يجر مؤخرته وأن يأتى إلى هنا، جيرى هذا". ثم أغلقت عينيها ونامت.

إد رافترى، أحد السائقين، أتى بحمولة. كانت الحمولة ذات وزن زائد، وعندما ناولته القصاصة الوردية، ابتسم ابتسامة عريضة. كان هناك محطتان للوزن على الطريق إلى مخزن الأسمنت، وإذا ما عبر سائق ما محطة الوزن التابعة للولاية مبكرا، قبل أن يتواجد موظفو الولاية، فإن الشركة تدفع ثمن ما استطاع السائق تمريره. لكن الحصى الزائد الذى تعدى العلامة الحمراء على الميزان لم يكن ممنوعا. عندما دخلت رأيت أن الوزن نقص إلى أسفل العلامة الحمراء. غادر إد وهو ما يزال يضحك، وأنا افترضت أنه استند بذراعه على ذراع الميزان، فزاد الوزن.

"إد هذا"، قلت، "ضحك علىّ ثانية".

لكن دوت نظرت بعيداء والإبر فى قبضتها كرماح. أصابنى ذلك بقشعريرة، أن أراها مجمدة فى هذا الوضع الذى ينذر بالخطر. لم يكن بالوضع الذى تستطيع أن تحيد بعينيك عنه، لكنى أحدت ببصرى إلى حيث تنظر دوت، إلى الباب حيث ظهر جسد رجل فجأة.

جيرى، بالطبع جيرى. هو الذى اعتلى الحمولة ورفع الوزن إلى ما بعد العلامة الحمراء، ثم قفز منها كالقط رغم بنيته الضخمة. لم أكن قد سمعت وقع خطواته. الحصى قرقع بالضرورة، لكن لم يتدحرج تحت حذائه البوت الخفيف.

كان أضخم مما أتذكره فى البار، أو ربما اعتقدت ذلك نظرا للفترة الطويلة التى قضيتها فى غرفة الوزن هذه، والتى تجعلنى أرى كل شيء ضخما. كان ضخما لدرجة أنه اضطر أن يدخل بجسده على مراحل، بدءا بكتفه، ثم بكرشه، وهو يزيح إطار الباب بيديه الطويلتين. كنت أراقب اليدين بينما يملأ جيرى الغرفة بجسده. بدت أصابعه الممتلئة رقيقة جدا كأصابع فنان. واستخدمهم ببراعة. أدار الرسغين، وصل إلى المسافة القصيرة التى تفصل بينه وبين دوت. لوى إصبعه الصغير، واستطاع أن ينزع السلاح من زوجته. سحب الإبر من قبضة دوت، وفحص اللباس الصغير الذى تدلى كثمرة ناضجة.

"حلو جدا جدا"، قال، وهو يتفحص الغرز الدقيقة المستوية. "للطفل؟"

أومأت دوت برأسها، برصانة، ونظرت إلى حجرها. كانت لحظة شاعرية تقريبا. الصمت طال لدرجة أنى شعرت بالحرج وأردت أن أخرج لو لم يكن جيرى قد سد الطريق بجسده فحشرنى فى زاوية.

جيرى وقف هناك، يسوى شعره الأسود خلف أذنيه. وكان هناك شيء رقيق فى تلك الطريقة التى سوّى بها شعره. أشياء كثيرة يفعلها جيرى قد تذكرك بطريقة امرأة جميلة تقف عارية أمام مرآة، وتلمس جسدها- بلطف، واعية بجمالها. أومأ مشجعا. "لنذهب إذا"، قالت دوت.

مهذبان، ضخمان، عملاقان، عبرا موقف السيارات، وبطريقة غامضة انزلقا داخل سيارة دوت الصغيرة. توقعت أن تنهار السيارة، اعتقدت أن الرفرف سيلحق بالأرض. لكن بدلا عن ذلك، طار الاثنان، وخلفا عاصفة من الغبار تعلقت فى الهواء لفترة طويلة من بعد انصرافهما.

عدت إلى غرفة الوزن بعد أن هدأ التراب. كنت أشعر بالسأم. وبما أن الأشياء كانت لا تختلف بالنسبة لى، التقطت الإبر وبدأت فى

شغل التريكو، بطريقة جيدة قدر استطاعتى، وأنا أشد النسيج بعد كل غرزة، إلى أن استغرقت تماما فى التريكو، ثم فجأة انتبهت إلى أننى قد أنهيت اللباس، قصصت الخيط، وربطت الأطراف لتصنع ياقة الحلة السميكة الصغيرة.

افتقدت دوت فى الأيام التى تلت ذهابها. أيام تشبه بعضها، يسلم بعضها للآخر دون هدف وتأخذ العقل بعيدا. بدا لى أننى معلقة فى الفراغ وأمضيت وقتى جالسة أحدق فى النافذة دون تفكير، أنظر إلى لاشىء حتى غروب الشمس، وهى تورم السماء كلها وتهبط على قلبى كغصة. لم أعد أستطيع أن أسمى أى شىء أشعر به، رغم أنى كنت أعرف أنه نوع من الملل. لقد عشت نفس هذه الحياة فترة طويلة. قمت بحركات بهلوانية ووقفت على رأسى فى الغرفة الصغيرة كى أكسر الملل، لكن الكثير من العزلة يفسد العقل. تساءلت كيف تحمل جيرى الأمر. أحيانا كنت أشد السائقين من شاحناتهم وأتحدث إليهم بصوت عال وبسرعة وبدون روابط كامرأة مجنونة. وكان هناك أوقات أخرى لم أتكلم فيها على الإطلاق لأن لسانى التصق بسقف حلقى وتصدأ.

أحيانا كنت أحلم بدوت وجيرى فى النهار. كان لدى العديد من أحلام اليقظة، لكن الأحلام التى عنهما كانت المقربة إلىّ. أتخيلهما فى مقطورة دوت الطويلة ذات اللون المائى والبرونزى، كلاهما

جائع. رأسان تتمايلان، أياد مشبوكة تتأرجح بينهما كجزوع متشابكة، يتنقلان فى المطبخ ويأكلان من العلب والأكياس الموجودة على المنضدة، كحيوانات هائمة فى الغابة. وبعدما أكلا، انتقلا إلى غرفة النوم واستلقيا على فراش دوت ذى الحجم الملكى والغطاء الساتان المشغول. التحما سويا، تشابكت أعضاؤهما وافترقت. جعلا المقطورة تهتز بشدة فوق قاعدتها الأسمنتية وأساساتها الخشبية، وامتدت الاهتزازات فأوقعت بالأكواب وكسرت الأطباق الصينى.

لكن ماذا عن الطفل المعلق هناك بينهما. هل عرف كيف يتواءم مع هذه العواصف الاستوائية؟ مر أسبوع بعد الأسبوع الافتراضى لمولده، وقد توقعت أن تأتى الأخبار السارة فى أى لحظة. كنت متشوقة لأعرف النتيجة، لكنى اندهشت حين ظهر جيرى عند باب غرفة الوزن على ظهر ماكينة عتيقة وصدئة ولا يمكن الوثوق بها وأبعد ما تكون عن أى دراجة بخارية رأيتها من قبل.

"لقد طلبتك"، قال بصوت كالفحيح. "اركبى بسرعة!" ركبت خلفه، رغم أنه لم يكن هناك مكان على المقعد. تشبثت بظهره الأملس وجلست على حافة حزامه الثقيل. مثل طائر، انطلقنا كشخص واحد، مدومين ريح عظيمة حولنا. السيارات تفرقت، الأضواء تناثرت وأومضت فى الشارع الرئيسى. التفت المشاة ليلقوا نظرة علينا- جبل راسخ على لعبة متعلق بوجهة الشمال الغربى، وفتاة تصيح بشىء

عبر الجسر، ثم تكف عن الصياح فى موقف سيارات مستشفى سان فرانسيس.

جلسنا على كراسى مصنوعة من بلاستيك برتقالية اللون فى غرفة الانتظار. سيقان الكرسى الرفيعة أنّت تحت ثقل جيرى، لكنها تماسكت ولم تتفكك طوال ساعات الانتظار الأربع. الممرضات أتين واسترحن كنوارس وسط أكوام التقارير وروشتات العلاج، ينظرن إلينا بعداء متحفظ. جيرى بالكاد فتح فمه. لم يضطر لذلك. رأيت العرق يتصبب على ضلوع وظهر جيرى، فغرفة الانتظار التى تشبه نفقا جيد الإضاءة، كومة المجلات، كانت عبارة عن ملامح المؤسسة التي لا يمكن تحاشيها. وبين الحين والآخر كان جيرى يذرع الغرفة ذهابا وإيابا على طريقة السجناء أو الآباء الذين ينتظرون مولودا. قام برحلات مطولة إلى دورة المياه. اختفت خفة حركته ورقتها، وأصبح رجلا سمينا ثقيل الحركة فى تلك الساعات، زوجا قلقا على زوجته التى تضع، مهددا ومتعبا من الهرب والقبض عليه ثانية.

ظهرت النوارس أخيرا وسحبوا جيرى وسطهم. دخل لزيارة دوت مدة نصف ساعة تقريبا، ثم خرج من غرفتها. واستقر ثانية على المقعد البلاستيك الذى ترنح تحته. بدا مرتبكا وحائرا وغير مرتاح لما رآه. وظلت عدسات نظارته الشمسية تنزلق على أنفه. وأنا بجانبه، شعرت بتوابع هزة أرضية، تتحرك من عمق جسده إلى

الأطراف. وعندما وصلت تلك التوابع إلى السطح، وصار يرتعد، وقف جيرى فجأة. "سأذهب لشراء تبغ"، قال، ومشى مبتعدا بسرعة.

أسرعت خطواته لتصبح ركضا وهو فى الممر. طرقع أصابعه وهو فى انتظار المصعد. حكت لى دوت أنها أرسلته ذات مرة إلى المتجر ليشترى لفة ورق تواليت. كان ذلك منذ ثمانية أشهر قبل أن تراه مرة أخرى، لأنه رأى حينها الشرطة فجرى بعيدا. ولهذا عرفت أنه عندما يطرقع أصابعه، فإنه يفكر فى وضع القفازات على يديه والهرب. ربما تكون المرة الأولى فى حياته التى يهرب فيها من أجل شيء.

بدا لى فى تلك اللحظة، أنه ربما ينبغى على أن أقول لجيرى إنه محق فى الهرب، فى أن يجرى إلى أبعد مكان الآن. رغم أنى شعرت بالثقل، جسمى كان مرتخيا، ورئتاى متعبتان من التدخين، إلا أننى قفزت من مكانى. أشرت إليه من نهاية الممر. التفت جيرى بدون إرادته. نظر باتجاهى فى اللحظة التى دفع فيها شرطيان محليان، لافشيك وهاريس، باب الطوارئ الذى يسد السلالم خلفى. لم أكن قد رأيتهم، وصدمت لأنى تسببت فى إحداث رد الفعل المتهور الذى صدر عن جيرى.

تصلب شعر رأسه. وانتفخ جسده فجأة كبالون مملوء بهواء ساخن. وراءه كان يوجد شباك عريض وكبير، فتحه جيرى ودفع بزجاج النافذة إلى الهواء برفسة رشيقة. ثم تبع زجاج النافذة وهو يحشر جسده بطريقة لا تصدق فى إطار الشباك مثل أرنب سمين يحاول الاختفاء فى فتحة. كان الشباك على ارتفاع ثلاثة طوابق من موقف السيارات المعبد بالأسمنت والأسفلت.

الشرطيان لافشيك وهاريس جريا إلى الشباك. الممرضات وراءهما. أنا انسللت من مخرج الطوارئ ونزلت على السلالم الخلفية الى الموقف، معتقدة أنى سأجد جيرى مذهولا ومفككا.

لكن جيرى اختار شباكه بطريقة محظوظة بشكل استثنائى، فقد ركن الشرطيان سيارتهما أسفل هذا الشباك. وجيرى هبط مباشرة على مقعد السائق، محدثا تجويفا لسقف السيارة الذى التصق بعجلة القيادة. قفز من على المقعد وهو يعرج قليلا، ودائخا إلى حد ما، واندفع إلى دراجته. لافشيك، الذى كان خارج وقت الخدمة، قام بعدة دورات حول الأشجار الهادئة. وكانت أصداء الدورات ما تزال فى الهواء عندما وصلت أمام المبنى.

وصلت فى الوقت المناسب تماما كى أرى جيرى بعد جراءة القفزة واستعادة الوعى اللتان تشبهان تصرفات الآلهة. اعتلى دراجته ليختفى وسط الأشجار الكثيفة التى تعلم مدخل المستشفى.

بعد أسبوعين، عادت دوت إلى العمل هى وطفلها، الذى سمى أخيرا جيسون، مثل معظم الأولاد الذين ولدوا في ذلك العام. واستمر الحال مثلما كان عليه من قبل باستثناء أن جيسون شغلنا فى الساعات الطويلة. كان طفلا ضخما ذا رئتين قويتين استخدمهما كثيرا. عندما كان يبكى، كان يضيق ملامح وجهه ويصير ذا تجاعيد طفلية ولا تفيد معه قطع السكر أو السكاتة. دوت فكت سوستة مريلة العمل، رفعت بلوزتها، وأرضعت الطفل لوقت بدا ساعات. وكانت دوت مدرة للحليب. ثدياها بدا كأنابيب داخلية ممتلئة عن آخرها وقد برزا من بلوزتها النايلون. أحيانا، عندما كانت تظن ألا أحد ينظر، كانت تقف وتحمل ثدييها فى حضن ذراعيها، لأن كتفيها انحنيا تحت ثقل ثدييها.

الشاحنات كانت تصل كل ساعة أو نصف ساعة. كنت أسمع صوت صفير هواء الفرامل وتغيير السرعات على مسافة بضع بوصات فقط من رأسي. وخطر على بالى أنه على الرغم من أن أننى أزن عدة أطنان كل يوم، فإننى لن أعرف ما هو وزن الطن إلا

إذا وقع عليّ. لم أعد أشعر بالوحدة الآن بعد أن عادت دوت. سينتهى الموسم عاجلا، وتساءلنا ماذا سيحدث لجيرى.

لم يكن هناك سوى بضعة أسابيع وينتهى العمل عندما سمعنا بخبر القبض على جيرى مجددا. اختبأ فى المحمية الخطأ- باين ريدج. فى نفس الوقت كانت قد تمت مداهمتها من قبل العملاء الفيدراليين والعربات المدرعة. الأسلحة كانت متوفرة فى كل مكان ويسهل الحصول عليها. حصل جيرى على سلاح لنفسه. حاول رجلان القبض عليه. لكن جيرى لن يذهب معهما وعندما بدأ فى الركض، بدأ إطلاق النار. جيرى أطلق النار وقتل رجلا حليق الذقن ذا شعر داكن وعينين فاتحتين، عميلاً فيدراليًا، رجلا ملأت صورته كل الجرائد.

أرسلوا جيرى إلى السجن فى ماريون، إلينوى. تم وضعه فى وحدة التحكم. يستقبل زائريه فى غرفة لا يسمح فيها بالتلامس، والصوت يأتى عبر ميكروفون، والنظرات من خلال شاشة زجاجية، حيث لا يمكن أن يحدث تناسل.

دوت وأنا مكثنا فى العمل سويا الأسابيع المتبقية. مرة قمنا بوزن الطفل جيسون. نزعنا عنه حلته التريكو الثقيلة كالدرع، ولففناه فى بطانية كروشيه خفيفة. دخلت دوت إلى غرفة الوزن لتعديل الأثقال. وأنا وقفت مع جيسون. كان طفلا متماسك البنية، وبدا وزنه

ثقيلا كالرصاص وهو بين ذراعيّ. وضعته على الأرض بين العجلات للحظة، ثم أبعدت ذراعى عنه. نظر بهدوء إلى السماء البعيدة. ولم يجفل عندما هبت الريح من كل اتجاه، وضيقت علينا حتى كادت تعصر آخر نفس من الحجر. كان مملوءا بالحياة، هذا الكيان المكون من عناصر دوت وجيرى، بدا وكأنه يزن قدر أى حمولة. لكن تلك كانت مجرد فكرة بالطبع. إذ اتضح أنه كان خفيفيا جدا ولم يسجل أى علامة على الميزان.

تعليقات:

* نانابوش. مصطلح أوجيبوى يدل على الأرنب العظيم، البطل المخادع، مثله مثل الكويوت، الذئب الشمالى الصغير، عند قبائل أخرى. يمثل البطل الثقافى الدينى لدى قبائل الألجونكيين، متبدل، وأكثر قدسية من الذئب كويوت فى جوانب عديدة. كويوت (ذئب شمالى صغير). المخادع أو المبدل، المجنون. يبدع طرق للتحايل على القوانين والأعراف. دائما موجود يتفوه بأخبار كاذبة، يتبختر ويلقى بنفسه وبالآخرين فى المتاعب. يهوى النساء ودائما ما يتسبب لهن فى المشاكل، لكن الكثير منهن يتفوقن عليه.

* بطاقات القبيلة. "بطاقة هوية هندية" أو قطعة ورق تحدد هوية الشخص فى كندا- أحيانا تستخدمها قبائل أوجيبوا الحدودية وجماعات الموهاك. فى الولايات المتحدة، يحمل الهنود الذين ينتمون لقبائل معترف بها فيدراليا بطاقات تحدد درجة الدم الهندى بهم.

قطن طويل التيلة

راينا جرين

هل كل شيء حكاية؟ سألتها رامونا.

كما لو أن ما تبحثين عنه هو الحكاية- ما عدا ذلك، الأمر لا يعدو مجرد أكاذيب يتداولها الناس ولا نهاية لها. انتظرت الجدة* لترى وقع الكلام عليها ثم بدأت ثانية، وهى تنظف البقع الحمراء الموجودة على مفرش مائدة المطبخ. تطلعت رامونا إلى عرف الديك من خلال باب المطبخ.

ليس عليك أن تسمعى أى شيء، لا عن البيض ولا عن الحمر- لا شيء عن أى منهما، ويمكنك أن تسميها أكاذيب إن شئت. وبطريقة ما، كلها أكاذيب تماما مثلهم. سواء كانت حكايات الرعد التى تخبرك إياها جهنو أو حكايات الإنجيل- أشياء حدثت فى زمن بعيد جدا لا يراها أحد أو حدثت فى وقت قريب جدا بحيث لا يستطيع أحد تكذيبها. استمعى إلى المزيد من حكاياتها وسترين أنك لن ترغبى

فى معرفة الفرق. ومع ذلك، هناك دائما اختيارات. مثلما خرجت جهنو ذات مرة إلى حقل القطن- حيث البيت القديم، تماما خلف هذا الباب. كنا ما زلنا فتيات، كلنا- هى وأنا وروز وآنا- وكان هناك بوبا، أحقر سافل ألمانى عاش هنا. جعلنا نخرج إلى الحقل لنقص القطن فى أسوأ وقت فى اليوم، أثناء قيظ الظهيرة. وكان يعامل الهنود والبيض على السواء- يمكنك أن تقولى مثل الزنوج- حسنا، هذا ما كانت آنا تقوله عندما كان لديها منطق، لكن البعض قد يجادل أنها لم تمتلك عقلاً على الإطلاق. على كل حال، زحف ثعبان أسود كبير على قدم جهنو فى حقل القطن. وهى بدأت فى الصراخ وركضت إلى البيت. يا الله، رمت المجرفة على الأرض وصرخت بأعلى صوتها كى نركض جميعا بعيدا عن الحقل.

"ثعبان، صرخت، ثعبان".

لكن بوبا رأى الثعبان الأسود وهو يزحف عبر الحقل ولم يركض بعيدا عنه. فهو يحب أن يقتلهم، ويدق جلودهم على الباب الخلفى للحظيرة.

"اللعنة، صاح، أيها الهنود الملعونون، إنه لا شىء، فقط ثعبان أسود واحد ولن يؤذيكم".

كانت هذه طريقته فى الكلام عندما يستبد به الغضب وهو لم يكن يستطيع التحدث بإنجليزية جيدة على كل حال. حسنا، بدأنا كلنا نضحك ونصرخ لرؤية بوبا وهو منفوخ من الغضب وجهنو، وقد انتابتها نوبة الخوف- وهى أيضا لم تتمكن من إجادة الإنجليزية مثله فى أى يوم. كانت غاضبة جدا لدرجة أنها كادت أن تبصق على بوبا.

"يا يسوع، ربما لن يؤذينى، لكن هذا الثعبان الملعون يجعلنى أؤذى نفسى".

بدأنا نضحك ثانية وبدا أننا لن نتوقف- وهى أيضا بدأت تقهقه عاليا كما تفعل هذه الأيام. بوبا انتفخ أكثر من الغضب وصار مثل ثور هائج ودخل إلى البيت كى تهدئ موما مشاعره الجريحة، وألقت جهنو المعزقة إلى الأرض للأبد. تركت تهليقة ورحلت إلى دالاس ولم تعد أبدا- وأنا لحقت بها فى العام التالى وتبعتنا روز بعد عشرة أعوام. لم يغفر بوبا لنا ذلك الأمر أبدا وجهنو لم تكن قريبته بأى شكل من الأشكال، لكن بوبا كان يتصرف وكأنها كذلك- لذلك تحطم قلبه مرة أخرى عندما تزوجت أمك من ابن جهنو. كانت الخيانة شيئًا سيئًا فى حد ذاته، لكن الاختلاط العرقى كان أسوأ. الزواج من هنود كان أسوأ مشهد لديه. أعتقد أنه كان يظن بأنها ستبقى وتخدمه كالعبيد للأبد كما كان يظن أننا سنفعل. لكنه كان مخطئا. توقفت الجدة عن

الحديث لتلتقط نفسها ثم سكتت، ونظرت إلى رامونا وهى تنهض وتتوجه إلى صندوق الثلج القديم المجاور للحوض.

أنا أعرف بأن هناك حكاية أخرى لهذه الحكاية، قالت رامونا. هل ستخبرينني بها الآن أم أحضر لك مزيدا من الشاى المثلج كى يساعدك؟ هل تريدينني أن أطببك بدواء الأطفال كى لا يبح صوتك؟

رأت الموافقة فى عينى الجدة؛ لذا فتحت علبة الدقيق حيث تحتفظ روز بالويسكى- وهى تتذكر العمة آنا التى طالما أسمته دواء القلب الخاص بها عندما كانت تتناوله بالملعقة عشر مرات فى اليوم.

إنها روز التى أريد أن أحكى لك عنها- وويل- وذلك الثعبان لم يكن حكاية فرعية. نعم أحضرى لى بعضا من ويسكى الأطفال هذا. إنه لم يؤذني أبدا ولا يؤذى أى شخص يشربه بقلب صاف. لقد تعلمت هذه الخدعة من متسلقي تلال الشيروكى الذين تنحدرين أنت منهم، سأقول ذلك. لكن عمك ويل، كان أبيض وكان يحتسى ويسكى أبيض أيضا. وقد أذهب بعقله وإرادته ولم يترك له سوى المشاعر. ويسكى بيبى دى يجعلنى أريد أن أشحذ أسنانى وأن أضرب آندى جاكسون. فقط أحضرى البرطمان وقضمة من لحم الخنزير الموجود على الرف الجانبى، وأنا سأخبرك بالقصة الحقيقية.

وضعت رامونا برطمان الويسكى أمام جدتها مع صحن به قطع من الحلوى وأوراق النعناع التى تفضلها عن بقية أوراق المضغ. وسكبت لنفسها بعضا من الويسكى فى الكوب الأزرق الذى دائما ما تستخدمه عندما تكون فى زيارة العمة روز.

"فى صحة دواء القلب" قالت.

الله يعلم أنك لا تحتاجين دواء الرأس، قالت لها الجدة. لديك جرعة كبيرة ورثتيها عن أبيك- التفكير هو داء هذه العائلة. حبيبتى، عمك ويل، كان مثل ذلك الثعبان، والكنيسة المعمدانية كانت مثله- الاثنان مخلوقان لبعضهما. لكنه كان كثير الشرب، وكان كذلك عندما تزوجته روز. وحين لا يستطيع الحصول على الويسكى من المهربين البيض، كان يحصل عليه من السود. لم يشرب أبدا ويسكى هندى- كالآخرين- لأنه كان يعتقد بأنهم يغشون الويسكى مثلما يفعل بيبى دى فى الحقيقة. وذلك الويسكى كان يجعله معتوها على أى حال. وصار حاله أسوأ. لم يكن لديه سوى الويسكى والويسكى ليس لديه سواه. لمدة عشر سنوات كان يشرب الويسكى كالماء.

استطاعت روز أن تجعل كل نساء الكنيسة يصلين من أجله، أسبوع تلو الآخر، وأبقين على يسوع المسكين يقظا وهن يصحن بخطيئة ويل. وكلما زادت صلواتهن وارتفع عويلهن، زادت لعناته

وشرب المزيد. وذلك جعلهن يكثرن من الصلاة. أنت تعرفين تلك النسوة المعمدانيات، حبيبتى- لن ينطقن بكلمة سيئة حتى لو امتلأت أفواههن عن آخرها- وهن يحببن أن يدفعن كل شخص إلى الحانات وصالات الرقص. لكن الجميع كان مستاءا من ويل. نفذ صبر الجميع منه. اهتاج وصار يهذى عندما أخذ بوبا وروز الشاحنة منه- خبآها فى حظيرة داديى فى لوست سيتى- لكنه سرق الجرار وذهب إلى المهربين.

حسنا، ثم ذات ليلة، ألحق المسحاة بالجرار ومحا نحو ثلاثين فدانا من قطن قصير التيلة من النوع الجيد بالقرب من البحيرة، انتابت روز نوبة غضب أخيرة. هى وبوبا قيدا ذلك السكير وربطاه بأطراف الفراش وتركاه هناك يتبول ويغوط على نفسه- تركاه هكذا ليومين أو أكثر.

ربما ثلاثون فدانا ليس بالكثير بالنسبة لك الآن، لكنهم كانوا كذلك وقتها. قيداه إلى السرير هناك فى تلك الغرفة الخلفية وبقى هو يسب ويلعن ويتمرغ فى خرائه ثلاثة أيام. هدد وتوسل وحطم كل شيء طاله كى يحلوا أربطته. لكن قلب روز كان قد اشتد- لدرجة أنها تركت بيتها اللامع النظيف يتعفن برائحة خراء ذلك السكير. فى الليلة الثالثة، كان أسوأ من أى وقت مضى، وهو يصرخ ويسب.

وأخيرا دخلت روز من غرفة الجلوس الأمامية حيث كانت تحاول أن تنام فى تلك الأيام الثلاثة. دخلت ووقفت أمام فراشة.

أختى، أعطينى قضمة أخرى من ذلك اللحم وبعضا من خبز جهنو قبل أن أستمر فى الحكى. من الممكن أن استمر فى أكل قطع من هذا اللحم طوال اليوم دون أن آكل وجبة مكتملة. ليس هناك ما هو أجمل من طعام المآتم.

من الأفضل أن تسرعى بالحكاية قبل أن يعودوا كلهم من مجلس العزاء ويسمعوا ما هو أسوأ، قالت لها رامونا. سوف آخذ قضمة لنفسى كى أستعيد بعضا من قوتى. قد أحتاج شريحة لحم كاملة إذا استمررت على هذا النحو.

أختى الصغيرة، لم أعرف أبدا أنك يمكن أن تتركى قوتك تتداعى. أنت بالتأكيد طفلة جديك.

حسنا، روز دخلت إلى غرفة النوم وهى تحاول أن تتنفس وسط تلك الرائحة النتنة وأن تقمع ضحكها على الحالة البائسة لذلك السكير العجوز. كانت تحب أن تراه بائسا كما كانت هى طوال كل تلك السنوات. لذا، وقفت أمام طرف الفراش، مرتدية لباس نوم قطنى أبيض- نفس ذلك الرداء القديم الذى لبسته عشر سنوات والذى كانت ستظل ترتديه إن لم يأتوا لها بذلك الرداء الأزرق السخيف كى تذهب

به إلى المدافن. إذا هكذا وقفت فى ذلك اللباس الأبيض، وويل، فى قمة غضبه، لأنهم أخذوا منه الويسكي، ظن بأن يسوع قد حضر ليخلصه. لقد رأى أشباحا وخيالات المهربين فى أسوأ كوابيس الشرب فبدأ يتضرع إلى يسوع. شعوره بالذنب الناتج عن شرب الويسكى جعله يتضرع إلى يسوع بألا يقبض على روحه الآن.

يسوع، لقد كنت شخصا سيئا أعلم ذلك، لكنى سأصبح طيبا غدا. يسوع، أنا لست مستعدا الآن، لكن امنحنى فرصة أخرى كى أخدمك. يسوع، سأمجد اسمك غدا ولن آخذ قطرة واحدة من الشراب.

حسنا، سيدى، استمر ويل على ذلك المنوال إلى أن دغدها الكلام، وأنت تعرفين كيف تصبح روز عندما تستثار. لذا، بدأت تضحك ضحك عشر سنوات قضتها فى المعاناة مع ذلك المزارع التافه السكير، وبدأت تهز ذلك الرداء الأبيض وتتحدث إليه. واستمرت كما هى تدعى أنها يسوع. حسنا، إذا كان يستطيع نبذ خطاياه، فكرت، لماذا لا ترتكب هى بعض الخطايا طالما أن هناك متسع من المكان فى هذا الفراغ.

أوه، ويل، قالت، بنبرة عميقة، لدى خطط لك. أنا فى حاجة إلى رجل عاقل، رجل تقى، رجل عادل. لدى خطط من أجل حياتك،

لكن عليك أن تعدنى بأن تتخلى عن السكر والعربدة وإساءة معاملة زوجتك الطيبة.

أوه يسوع، سأفعل، سأفعل ذلك، صاح عاليا. يسوع، إننى الشخص الذى يمكنه القيام بذلك.

ويل، قالت، وهى تلوح بذراعيها وتقف على أطراف أصابعها فى ضوء اللمبة الجاز- رداءها يلقى بهالات بيضاء حولها- أريدك أن تخرج من وسط هذا البول والخراء، من هذا المستنقع الذى سقطت فيه، وأريدك أن تعظ بكلماتى.

أوه، يسوع، وعد، أنا ذلك الشخص.

حسنا، كادت أن تقتل نفسها من الضحك، لكنها استمرت إلى أن تعب كلاهما ووعد ويل بأن ينشر كلمة يسوع حتى يوم مماته. عندما هدأت نفسها، كان ويل ما يزال يهذى عن يسوع. لكنها نظرت إلى تلك القطعة من اللحم المتعفن على الفراش وفكرت فى القتل. التقطت قدرة من تحت الفراش وحاولت أن تكسر رأسه. التقطت الملاءات المتعفنة وحاولت خنق عنقه التى تشبه عنق الديك الرومى، وحاولت أن تخنقه بآخر وساداتها المحشوة بالريش.

لكن يسوع خلصه رغم كل محاولاتها، وعاش وأثنى عليها، معتقدا طوال الوقت أن يسوع كان يختبره. حسنا ربما كان الأمر كذلك. لكن رغبتها العارمة فى قتله ونجدة يسوع له جعلاها تكره الكنيسة بشدة على الفور. اعتقدت أنه إذا استيقظ وحقق وعده بأن يعظ، فتلك كنيسة لا تريد أن يكون لها أية علاقة بها. حسنا، الشيطان لم يقدم لها حلا، والسافل لم يمت. لذا، نزعت عنها ذلك الرداء الأبيض وألقت به إلى الفراش بجانبه.

أنا لست يسوع، أيها المعتوه العجوز، انتصبت أمامه وصرخت فيه، أنا زوجتك المجنونة الملعونة بكما أنتما الاثنان.

غلت مياها لتأخذ الحمام الأكثر سخونة فى حياتها وجلست عارية فى غرفة مضخة الماء طول الليل، تدندن بكل أغانى الرقص التى تعرفها، وكانت ما تزال جالسة عندما دخل عليها بيبى ديى فى الصباح. كانت تضحك وتغنى ومسرورة كما لم يرها أبدا، ولم يصدق أذنيه عندما سألته إن كان قد فكر فى نقل مهاراته فى صنع الويسكى إلى دالاس. كانا قد ذهبا قبل أن يعود ويل، وعندما فعل، استأذنها فى أن يحصل على العقاب الذى يستحقه. نظف نفسه تماما وذهب مباشرة إلى القس ليعترف بخطاياه وليسجل اسمه على طريق يسوع.

روز وبيبى ديى ذهبا فورا إلى دالاس برفقة جهنو وهنود آخرين ممن غادروا المكان من قبل، وهنا انتهى بنا المصير – أى، حتى وفاة ويل قبل خمسة عشر عاما وكان سليما معافى كطفل وليد. روز استمتعت بوقتها وهو كفر عن سيئاته بأن عاش على الصراط المستقيم. أخذت هى الشىء الوحيد الذى أحبه، وانتهت إلى أن صارت تكسب رزقها من بيعه.

يسوع هو الذى فعل كل ذلك، هكذا كانت تقول للناس.

هناك خلاص على شكل قطعة قماش بيضاء تظهر للسكارى فى الظلام وتجعلهم يتغيرون. لذا تساءلت متى ستظهر لها. جعلت بيبى ديى يهرب الويسكى الخاص به أيضا، حتى لا يستطيع أحد الحصول على الخلاص ويكسب يسوع أرواحا جديدة. اعتادت أن تقول له– شغلنا هو الويسكى، وليس خلاص البشرية. يسوع يشبه العرب ويرتدى ملابس تشبه ملابس النساء وهذا لا يخصنا فى شىء. وأخذا يذهبان إلى مراقص التلال بعد أن عادا إلى هنا ليستقرا دون أن يحتسيا قطرة واحدة من الويسكى الذى يصنعانه "لأنها تحولت إلى هندية بنفس القدر الذى ابتعدت به عن الكنيسة والمسيحيين، وهذا أحزن قلب بويا أيضا. لقد اعتقدت دوما، مثل جهنو، أن الغرض من الثعابين هو تحذيرك، وهى عملت بالتحذير.

حسنا، ها هى الحكاية ولا يوجد نهاية لها. هناك أكثر من شىء يمكن أن يؤذيك وأكثر من شىء يمكن أن يخلصك.

يسوع، قالت رامونا.

نعم، يسوع، قالت الجدة.

هناك صورة بوبا وويل على الحائط، حيث ينتميان الآن- فى بزات رجالية ومناديل مصنوعة من الحرير الفرنسي. وها هى البقية مننا- أنت وموما وبيبى ديى وجهنو وأنا- نروح إلى الهنود أو إلى دالاس أو إلى أحد تلك الأماكن الغريبة التى تحبينها. باستثناء روز المدفونة فى المدينة. على الأقل لن يعظ لها أحد هناك. يمكن ان تعتبر ذلك راحة لها. ونحن نستطيع فقط أن نغنى ونقول أكاذيب عندما يعودون كلهم إلى البيت، والهنود يستطيعون دفنها بالطريقة الملائمة غدا. أنت وبيبى ديى تستطيعان القيام بذلك على أكمل وجه. ربما يشرب بيبى ديى كأسا من الويسكى الذى يصنعه اليوم.

مزيد من الحكايات؟ سألت رامونا.

علاج لدغة الثعبان، قالت الجدة.

تعليقات:

* الجدة. الجدة السلحفاة، الجدة العنكبوت، أو فقط الجدة. هى التى أتت بالناس إلى الأرض وأعطتهم المعرفة والقواعد التى يحتاجون إليها. الشعوب الهندية لديها العديد من الجدات، حقيقيات وأسطوريات. البعض لهن صلة دم والبعض الآخر متبنى. الجدات تربى الصغار، يحكين الحكايات فى الشتاء ويعلمن الأطفال المهارات اللازمة للبقاء على قيد الحياة. الجدات شخصيات محورية فى الحياة اليومية والرمزية لدى النساء الهنديات، وللشعب الهندى فى العموم.

حذاء جديد

لندا هوجان

حتى وهى تفرد كسرات الملاءة، كانت سولى تتساءل فى ذهنها عن الأحذية. بدت وكأنها ستتلقى إجابات موحية من لون النهار الأبيض لما بعد الظهيرة من خلال النسيج القطنى الدقيق، بالطريقة نفسها التى تقرأ بها عجوز المستقبل فى فنجان شاى مصنوع من البورسلين.

مانى دخلت فى هدوء، تاركة عربتها فى ردهة الفندق. "فى الشمال من حيث أتيت، الناس تقرأ الجرائد وليس الملاءات" قالت مانى، ثم خرجت من الباب، ساقاها ظلتا داخل تنورتها الشفيفة.

طوت سولى أطراف الملاءات تحت المرتبة وفردت مفرش السرير الأخضر الباهت عليها. كان اللون أشبه بلون الطحالب، وباهت. عما قريب سيصل زبائن الفندق الجدد ليناموا بين الملاءات القطنية المعطرة برائحة مسحوق الغسيل ورائحة الكى. فردت يدا

سولى القصيرتان كرمشة. نظرت إلى نفسها فى مرآة التسريحة وهى تطوى بطانية. انسدل بعض من شعرها خلف عنقها. ثبتته لأعلى. كوعاها الغامقان والجافان انثنيا نحو السقف وارتفع رداؤها الأزرق الباهت عن فخذيها. نظرت إلى انعكاس جسدها يدفع بالملاءات المبقعة داخل الحقيبة المشغولة بالكنفاه المعلقة على جانب العربة المعدنية. فى الوحدة التى توفرها الحجرة، فى المرآة المشوهة، مباشرة أمام جبهتها وأمام فخذيها، رأت نفسها بالطريقة التى غالبا ما يراها الآخرون بها، جادة جدا، غامقة العينين، كتفيها ثقيلين، لكن حية ونشطة، تملأ الغرفة التى لم تعرف قط زبونًا دائمًا.

فى المخزن أشارت الأيدى السوداء للساعة المعلقة على الحائط إلى الثالثة. لقد تأخر الوقت كى تلحق بالباص، ودونا ستعود إلى البيت قبلها، وستجلس على الأريكة تستمع لصوت حذاء أمها، وهى تقلب بكسل صفحات مجلة قديمة. أو ربما ستفتح الدولاب المعدنى وتجرب أحد ثياب أمها القديمة أمام المرآة، وهى تدير نفسها لهذا الجانب ولذاك، مبرزة صدرها للأمام لمسافة كبيرة، رافعة شعرها الغامق إلى أعلى رأسها. وبإصبع الشفاه الرخيص الذى اشترته سولى عاملته ككنز لفترة، سوف تصبغ دونا خديها و تفرد اللون عليهما، تغمق شفتيها الممتلئتين اللتين ما تزالان تحتفظان باللون الوردى الطفولى. وسوف تدخل قدميها، الحافيتين، فى الحذاء الجديد وتقف أمام المرآة كبيرة الحجم داخل ضلفة

الدولاب و تنظر إلى خطوط فخذيها الصغيرة المنثنية أسفل ظهرها.

خلعت سولى رداء العمل وعلقته على شماعة الملابس. كانت كلمات "فندق الأنانس" مشغولة بخيط أحمر على الجيب. الكلمات كانت معلقة هناك على القماش الأزرق السماوى مثل كتابة متدلية من طائرة.

"هناك شجرة أناناس واحدة فى الحى بأكمله" قالت مانى، "وهى تلك التائهة نصف الميتة على الجانب الآخر من الطريق. خلف البيت الأبيض".

بدلت مانى الملاءات غير المستعملة على الرفوف، وألقت بالحقيبة الكنفاة التى تحوى الملاءات المتسخة فى الركن من أجل الغسيل. "هل ستعودين سيرا؟" سألت مانى سولى. "يجب أن تأخذى الحافلة. كم تعتقدين أنك توفرين من السير هذين الميلين؟"

"أنا أمشى فقط فى الصباح".

"عندما تكون قدماك ما تزالان جيدتين؟" أزاحت الدبوس من بين أسنانها وشبكت قميصها من أسفل الداخل. "هل مكشوف؟" ابتسمت مانى وطمأنت سولى بذهب عينيها الدافئ. مانى بلون جلدها الطينى، شعرها الأسود المفرود بدرجة تكفى لظهوره ناعما من على السطح، مثل الماء حيث الدوامات تلتوى وتتجاذب تحت

جلد بلا تجاعيد. صوت مانى كان بطيئا، غير ممتلئ بالدردشة السريعة مثل الخادمات الأخريات، لا تتحدث عن عشاق وأطفال، عن الخروج للرقص أو توفير المال لشراء سيارة.

مانى كانت تكسب أكثر من سولى بمقدار خمسة وثلاثين سنتا، لأنها كانت ملونة وليست هندية. عندما استجمعت سولى شجاعتها وسألت المدير عن موضوع المال، قال: "لا تتبعى القيل والقال. أنا لا أحتفظ بالناس الذين ينمون. واخفضى كتفيك ولا تتخذى هذا الشكل المتحدى".

المنزل ذو شجرة الأناناس الوحيدة كان بمعزل عن البيوت الأخرى، ومحاطا ببعض الأشجار القصيرة، ومرج صغير، بقايا مزرعة قطعتها الشوارع الجديدة وسحب عوادم الحافلات. أمام المنزل يوجد مطعم للعشاء ومحطة الحافلات التى تنتظر بها سولى. كل ذلك يمكن رؤيته من شرفة الطابق الثانى للفندق. الشجرة التى تحتضر والتى أحنتها ريح غير مرئية، تبدو كامرأة عجوز تنحنى كى تلامس أطفالا قصارا.

جلست سولى على المقعد الذى يعلن عن سيارات مستعملة. أشارت مانى برأسها نحو المطعم. "أتريدين قهوة؟" لكن سولى هزّت رأسها نفيا. "كما تريدين" قالت مانى وسارت نحو المطعم بطريقة

متهادية كما لو كانت ترتدى حريرا أخضر وأساور من الذهب ولبسَ قميصا خفيفا مطبوعا وتنورة. دخلت المطعم، وهو عبارة عن بيت مقطورة بها غرفة إضافية فى الخلف. النوافذ أصفر لونها إلى حد ما من جرّاء أبخرة زيوت الطبيخ. من الخلف تستطيع سولى رؤية مانى وهى تلقى بنفسها فى مقعد خلف المفرش البنى وبرطمانات المستاردة المستخدمة كمزهريات تحوى زهورا بلاستيكية.

جلست سولى على الطريق، تفكر فى البيت، فى سلاحف كبيرة بطيئة الحركة تهاجر بالمئات عبر الطرق المتربة، فى الليالى الساكنة وقت أن تقفز الضفادع فى الماء فيستيقظ العالم على الأصوات التى تصدرها حناجرها المنتفخة.

بدأت الريح تهب على الشارع. غطت سولى وجهها بكفيها اتقاء للغبار والتراب. نساء أخريات أمسكن بتنانيرهن، شعرهن الأحمر والذهبى يتطاير على وجوههن. حركة ما لفتت انتباه سولى. شىء ما أبيض فى السماء كان يطير مثل طائر ضخم. رغم عاصفة الرمال، نظرت لأعلى، ولكن وهى تحدق فى السماء، استطال الطائر وكشف عن نفسه، لم يكن سوى صفحة من البلاستيك شدتها الريح بقوة. استطالت كثعبان أبيض طويل ثم خف ضغط الهواء وبدأت تتهاوى.

فى الحافلة جلست سيدتان مسنتان أمامها. كلتاهما كانتا تتحدثان دون أن تستمعا لبعضهما البعض. كانتا تتحدثان فى حوارين مختلفين عن تصرفات الناس فى المدينة، دون توقف، دون استماع. كما لو كانتا تحاولان قول كل شىء قبل أن يصبح الوقت متأخرا لقوله، قبل أن تداهمهما الأفكار. كان شعر واحدة بلون حديد الزهر. الأخرى استخدمت ورقة كمروحة كما لو كان الجو حارا ورطبا، وهى تتحدث لوجهها المنعكس على النافذة عن أطفالها، واحد فى البحرية فى سان دييجو، والآخر يدير محطة وقود فى نيفادا. وضعت الورقة فى حجرها ووضعت قليلا من مسحوق تجميل على أنفها، وهى تحدق فى مرآة صغيرة مستديرة عليها طبقة خفيفة من المسحوق الوردى.

رجل ذو شعر غامق أمام السيدتين نفث دخان سيجارته بقوة. المرأة ذات مساحيق التجميل حركت الدخان بعيدا. سولى راقبت الدخان الأرزرق يرتفع الى النوافذ المفتوحة، مترنحا مثل سحابة فى دوامة هوائية، وهو يلامس الزجاج. كان الدخان مثل ضباب ينقشع عن بحيرة فى الصباح الباكر. بخار يرتفع من وعاء سلق الخضروات، كوسا، طماطم، بصل. كانت رائحته طيبة، تلك الرائحة العبقة للتبغ المشتعل.

بدت المبانى مهتزة أمام النافذة. رجال المناوبة الصباحية كانوا يحملون لفائف الغداء إلى سياراتهم والحافلات، كلهم مسرعون

أمام النافذة كما لو أن سولي تجلس ثابتة وتشاهد فيلما، فيلما ضخمًا سريع الحركة عن ناس يختفون فى الجنوب. حتى أولئك المتوجهون شمالا كانوا يدفعون إليه دفعا، يُسحبون للخلف أخيرا من أمام النافذة ويختفون.

وقفت سولى وشدت حبل الجرس. شعرت أنها صارت مرئية، الناس الواقفة خلفها ينظرون إلى شعرها المضموم للخلف و شعيراتها البيضاء الأولى، إلى ردائها القطنى وقد تكرمش من جلستها على المقعد البلاستيكى، إلى تهدل ذراعها، العارى والمكشوف وهو يرتفع لأعلى للدق على الجرس. نزلت من باب الخروج الذى انقفل خلفها مصدرا وشوشة.

دونا لم تكن موجودة. كراستها كانت موضوعة على المائدة وكان هناك كوبا متسخا بجانب غسالة الأطباق الجديدة التى اشترتها سولى من راتبها السابق. شطفت سولى الكوب و وضعته مقلوبا فى الغسالة البلاستيكية برتقالية اللون، ثم مسحت الكوب والغسالة بفوطة. أصدر حذاؤها صريرا على الأماكن المنتفخة فى مشمع الأرضية الرمادى.

كانت جاكتة دونا على الأرض بجانب الكنبة التى تستخدم فراشا. التقطتها سولى ثم، لمرة أخرى، زحفت تحت الكنبة وسحبت

فردة الحذاء الأسود. الحذاء الجديد. كان الحذاء لامعا، جديدا، لم ينتعل بعد. حذاء من الجلد بكعب مدبب رفيع وفتحة منحوتة لكل إصبع. أزالت سولى التراب عن الحذاء بتنورتها. رأت وجهها منعكسا على الجلد اللامع، جبهتها العريضة فى استدارة الجلد. قفز قلبها فى صدرها مجددا مثلما حدث عندما وجدت الحذاء أول مرة.

كان الحذاء أجمل من الحذاء الذى انتعلته آنا ماى فى ذلك الصيف عندما جاءت من تولسا راكبة خلف رجل على دراجة بخارية. وآنا انتعلت ذلك الحذاء ذا الجلد الأحمر وقد كساه التراب، طول الطريق من المدينة إلى الطرق المتربة، عبر الأخاديد التى شقتها الأمطار فى الأرض. انتعلته فى البيت، وارتدت أيضا فستان من قماش أحمر وأزرق، كان يهفهف وراءها على الدراجة.

هللت العائلة إعجابا بالفستان اللامع والحذاء حتى قبل أن يرحبوا بـــ آنا ماى وصديقها ذا الوجه الرفيع. سولى لمّعت فيونكات حذاء أختها، دارت على الأرض منتعلة الحذاء الأحمر الذى كان كبيرا جدا، و قد برزت ساقاها الخشنتان والمتربتان من الحذاء، وبدوا كعصاتين قديمتين.

وضعت سولى حذاء دونا الجديد تحت الكنبة. ركنته بطريقة لا تجعله ظاهرا من ناحية المائدة.

كان الوقت معتما عندما عادت دونا. عينا سولى تجولت من وجه دونا وحتى كتفيها المرفوعين، اليدين الكبيرتين اللتين دائما خارج المكان، ثم نظرت إلى قدميها وذلك الحذاء البالى. نظرت ثانية إلى وجه دونا ذى البشرة الفاتحة. "لقد كنت قلقة".

"كنت عند صديقة" قالت دونا.

" جائعة؟"

" أكلنا".

فتحت سولى الثلاجة ووقفت فى الضوء. تمايل البخار من الباب ولفها. أخذت الجبن وأعدت لنفسها "ساندويتش" وهى تجلس إلى المائدة.

نظرت دونا إلى النافذة، تراقب انعكاسهما على الزجاج. امرأة وفتاة مثلهما جالستان فى مربع الزجاج الغامق.

"ماذا أكلت؟"

"خبز اللحم وبطاطا". تتبعت دونا بإصبعها تصميم الإطار الأسود الذى يلف المائدة البلاستيكية ذات اللون الذهبى. "انظرى، هذا مصمم على شكل صقر. أترين؟ ها هو جناحه. أترين منقاره؟ إنه يقول، القطار على وشك الوصول".

"لم آكل خبز لحم من مئة عام" قالت سولى. مدت نفسها عبر المائدة كى تلمس ذراع دونا. سحبت دونا نفسها، نهضت و ملأت الكوب بماء من الصنبور. تعكر الماء ثم صفى.

"ماذا سيقول الصقر حقا فيما تظنين، يا أمى؟"

سولى كانت هادئة. وقفت ثم طوت المفرش الذى نسجته رينا. كانت تتعامل بحرص مع النسيج، وهى تأخذه من على ظهر الكنبة. كل رقعة كانت مطرزة بحكايات من حياة سولى. لو كانت رينا عاشت مدة أطول، كانت ستوجد حكايات أكثر للحياكة، حياة سولى مع والد دونا. تلك الحكاية كانت ستحوى سيارة وتدخين السجائر. سيكون هناك رقعة لمولد دونا، الهندية الصغيرة ذات البشرة الفاتحة التى ستنتعل فى يوم ما حذاء جلديا خفيفا للرقص فى قدميها النحيلتين. سيكون هناك مربع يحتوى على حكاية فندق الأناناس وسولى واقفة فى الشرفة تنظر إلى شجرة الأناناس المصفرة التى فقدت ابرها وتبدو كامرأة عجوز تنتحب. ماذا أيضا؟ كفن صغير يحوى ابنها الميت. سولى راكبة الحافلة الى دنفر مع دونا الصغيرة تبكى إلى جانبها. كل شىء بدا مثل زجاج النافذة الضخم والمبقع، ألوان المفرش مع الإضاءة من الخلف. هناك صورة لكل حدث مهم فى طفولة سولى، صورة لمولد سولى، سرب النحل، حلقات صغيرة من الذهب، تطير أمام القطن الأزرق

الباهت، كبار السن واقفون أمام الباحة الأمامية للبيت القديم. أحدهم، امرأة عجوز تدعى ليمون، كانت ترتدى فستان أصفر وكانت ترفع الطفل الأسمر إلى الشمس. ساقاها كانتا حمراوتين. كانت هناك سحب زرقاء داكنة.

الرقعة الأخيرة لم تكتمل أبدا. رينا كانت تشتغل عليها فى الصيف الذى ماتت فيه. كانت عن بحيرة تحوى أسماكا ذهبية حيكت عبر الأمواج المنسوجة. وكان هناك البغلان الأحمران المشهوران اللذان لهما ظهران مقلمان بخيط أصفر كما لو أن الشمس أشرقت عليهما. رجال فى مراكب وطوافات. مجموعة من النسوة يجلسن إلى مائدة يتبادلن القيل والقال تم تخطيطها بالحبر. لكن لم يتم نسجها. لم يتم ملأها. كن أشبه بأطياف مراكزها بيضاء.

طوت سولى المفرش ووضعته على المائدة بجانب الكنبة. "ساعدينى فى جر هذه الكنبة، حبيبتى" نظرت إلى دونا: "أتعرفين، أعتقد أن الصقر سيقول، سيأتى يوم سيتعرى فيه العالم بسبب أفعال الرجال".

نظرت دونا إلى المفرش. "هل نستطيع النوم تحته؟"

"أنا أدخره" قالت لها سولى مرة أخرى.

"لأجل ماذا؟ عندما تكبرين وتموتين؟"

"لا، حبيبتى، أنا فقط أريد الحفاظ عليه فى حالة جيدة. عندما تكبرين، سوف أعطيه لك".

رقدت دونا بين الملاءات. سولى جلست بجانبها وداعبت بأناملها خصلة من شعر دونا.

ادخار الأشياء من أجل الشيخوخة. نفس الفكرة. سولى وبخت نفسها. ادخار الأشياء فى حين تريد البنت شيئا جميلا تمسكه و تلمسه الآن. هذا ليس جيد. أم وابنة لحالهما فى المدينة، ليس شيئا جيدا. هذا ما يحدث عندما تتزوجين برجل يعود إلى بيته في حر الصيف بعد غياب عامين، فتضطرين لإخباره عن موت ابنه ثم تبكين ثم ترحلين مع الرجل، إلى أى مكان فقط حتى تبتعدين عن ذلك المكان الموحش وتلك الحرارة. فقط لتبتعدين عن ذلك المكان الذى أتى إليه عمك مخمورا وأطلق الرصاص على زوجته، المكان الذى باع ابن عمك كل شيء فيه كنت تمتلكينه فقط ليشترى زجاجة خمر ثم يحاول تقبيل عنقك. لم يكن شيئا يستحق النظر إليه، لكنه باعه إلى زوجين صغيرين كانا يركبان شاحنة بيك آب فبدا أنهما أتيا من الشرق. وأنت رحلت مع رجل أبيض وهو ذهب إلى الجيش. هكذا سيحكى الصقر.

كان الأمر أفضل فى غيابه، فى غياب زوجها. حتى محاولة كسب الرزق. ترقيع جوارب وملابس داخلية فقط لشخصين. ألا تضطر لسماع ذلك الرجل وهو يفتخر بما كان حين كان يغنى فى الحانات أو عندما كان يلعب البيسبول فى فريق كبير أو آخر. الأفضل ألا تستلم خطاباته أو الصور، تلك الصور التى كان يلتقطها لنفسه ولأصدقائه فى الجيش فى حانات بصحبة نسوة شرقيات يبتسمن خلفه. ومع ذلك، دونا كانت تكبر بشكل مختلف. كغريبة. كانت ستصبح فتاة بيضاء. سولى تستطيع رؤية ذلك فيها. فى طريقتها لكبح توترها، فى هزة قدمها. فى الشعر الذى أبقته مقصوصا. كانت تكبر مع صخب الحافلات والسيارات، ومجندين ونساء يرتدين فساتين حمراء ويضحكن خارج النافذة فى الليل. لم تكن تكبر مع حرارة أفران الخشب التى كانت تظل مشتعلة حتى فى الصيف وفراشات الضوء بمصابيحها الصغيرة تومض وتنطفئ. حسنا، لن يكون عليها جمع القطن لآل وودراف مثلما فعلت سولى، وهى تشعر بالجنون لأن السيدة وودراف كانت نفسها نصف هندية وتنفق المال الذى تحصل عليه من بيع القطن على فساتين من الحرير والغداء فى أماكن غالية جدا بينما تضطر سولى إلى جمع القطن من الحقول المتربة وعينيها غائمتان. ولن تكبر وتنام مع الرجال على الطريق فى الليل مثلما فعلت آنا ماى.

لابد أنه المفرش الذى جعلها تحلم بالسير فى البحيرة الكبيرة هناك فى المحمية. الماء كان دافئا على ساقيها. سكون باستثناء صوت الماء يتساقط منها، وهو يتلامس مع الشطآن بإيقاع بطىء كما لو كان يعشق الأرض. وفجأة كانت تقف فى الشارع قرب المطعم، السيارات تدهمها وهى كانت مشلولة، عاجزة عن إنقاذ نفسها.

أفاقت سولى. كان الجو باردا. غطت دونا بنصف بطانيتها ونهضت. السماء كانت تتهيأ للشروق خارج النافذة، وكذلك الستائر القطنية البيضاء مع الألوان الوردية لطلوع الشمس. بدأت حركة السير فى الشارع. واقفة فى رداء نومها الباهت وشعرها الطويل منسدل حول وسطها، أزاحت سولى الستائر وماء القهوة فى الغليان. ذهبت بهدوء إلى الغرفة الأخرى. ثم سحبت الأغطية. "حان وقت النهوض".

فى الخارج، وقفت دونا على طرف المقعد الحجرى فى انتظار الحافلة. مجندان صغيران فى السن ارتميا بتكاسل على المقعد. كانا يرتديان زيا زيتونى اللون، أحدهما سحب قبعة الجيش الخاصة به على وجهه كما لو كان نائما، وساق متقاطعة مع الساق الأخرى. يداه مشبوكتان فى حجره. دونا وقفت فى حالة انتباه.

مرّ قطار. أصدر صوتًا مجلجلاً وقويا وبدا فى سرعته وكأنه سيفتح جاكتة دونا التى أحكمت إغلاقها. تطاير شعرها فى دوامة من العادم والحرارة، الحرارة تتماوج مثل سراب، حقل صيفى أو طريق سريع. الجندى الذى كان جالسا لوّح بيده إلى محصل غير مرئى على الرصيف بين العربات، ثم رمق دونا بنظرة. استوعب بنظره جسدها النحيف وصدرها. أمام تحديقه، وقفت سولى متصلبة دون حركة. نظرت أمامها مباشرة، لكن جسدها تصلب داخل جاكتتها الرمادية المزرقة.

انطلق القطار مسرعا من أمام المحطة حاملا فحما فى العربات السوداء ومتوجها ناحية الشرق على قضبان مهتزة.

دونا كانت ساكنة. فى وسط كل تلك الحركة، امتلاء السيارات بالركاب، الأعلام الحمراء والذهبية البلاستيكية التى لوّحت بمزاد السيارات المستعملة، كانت دونا ساكنة، ثم اختفى القطار.

داخل البيت، مسحت سولى الحذاء الأسود بفوطة مطبخ. وضعته على الطاولة، على الصقر المتكلم المصنوع من البلاستيك. جففت غسالة الأطباق. كانت جميلة، بلون الزهور البرية فى المحمية. برتقالى براق مثل لعب الأطفال الجديدة وزجاجات الملح المكسيكية الملونة، مراجيح المدينة. فى ضوء الصباح، التمع

المطبخ كله، كل شيء صاف وممتلئ بجماله الخاص. آنية الحبوب كانت بلون اليعسوب الأزرق. فنجان القهوة كان بنيا داكنا. كان على الطاولة بجانب الحذاء الأسود.

الحذاء كان صغيرا. على مقاس دونا. داخله، فى المكان الذى ستلمس فيه قدم دونا وترتفع عند المشى، كانت كلمات "قسم مونتجومرى" قسم الحمار، مثلما كان أولاد عم سولى يطلقون على المتاجر الكبيرة البيضاء على طريق برودواى، المتجر ذو الأسلاك التى تخترق السقف، و تمتد عبر المكاتب، وماكينات النقود.

حذاء سولى كان مسطحا وباليا خاصة عند الكعب. الأسبوع الماضى انغرس مسمار فى الكعب أسفل قدمها.

فرضا أن دونا سرقته، تساءلت، وهى تقف ناظرة إلى الحذاء الجديد. احتست قهوتها. فرضا أن دونا سرقت حذاء تلك المرأة؟ أو سرقت نقود سولى. التقطت سولى حقيبة يدها وفتحت الجيب الخاص بالنقود. ثمانية عشر دولارا وتسع وعشرون سنتا. النقود كما هى.

تخيلت سولى الحذاء الجذاب فى ساقى دونا الشبيهتين بساقى حصان. مع الأصابع الوردية والأظافر المطلية بارزة من الفتحات المنحوتة. عضلات دونا الرفيعة لينة فوق الكعب العالى. الساقان الرفيعتان، بسبب الفقر والعوز، لونهما كريمى والركبتان الكبيرتان

يبدوان فى حالة سيئة أكثر وهما فوق الحذاء الأسود. وهناك أولئك الجنود الذين كانوا ينظرون إلى نهدى دونا الصغيرين وإلى شعرها الأسود المحمر يتطاير على كتفيها. كيف سينظرون إليها عندما يرونها تمشى فى ذلك الحذاء؟ من المؤكد أنهم لن يرغبوا فى لمس تلك الساقين الصغيرين والأرداف أو احتواء نهديها بين كفوفهم.

لابد أن أحدا ما أعطاها ذلك الحذاء. الصديقة التى أكلت عندها خبز اللحم.

دونا لم تكن تستطيع عد النقود ودائما ما تخجل أمام موظفى المبيعات، وهى ممسكة ببضعة سنتات بالقرب من جسدها فى انتظار الموظف أن يمد يده ويحصى المطلوب من اليد الرطبة. ميس فيدلر، مدرسة دونا، هى التى أخبرت سولى نفسها بأن دونا لا تستطيع عد النقود. لقد زارت بيتهم، وطوال الوقت كانت عيناها الزرقاوان تتجولان فى المكان دون أن تنظرا إلى سولى، التى اعتقدت أن المرأة تفتش عن الحشرات والتراب. تلك العينان الزرقاوتان تنظران إلى ثقوب المسامير على الحائط العارى، إلى رسومات دونا المثبتة على حائط المطبخ بجانب النافذة، إلى المفرش وصوره المنسوجة على شكل سولى وأمها واقفتين فى حقل ذرة أخضر وسلحفاة حمراء تحلق فى السماء كشمس عملاقة وضفدع أصفر وعقرب ملتوى فى كل زاوية.

"ما هذا؟" أشارت ميس فيدلر إلى السلحفاة والعقرب.

" أوه، سلحفاة حمراء. تبدو و كأنها تسبح".

"سلحفاة السماء. من حكاية قديمة رواها لي أبي".

سولي كانت منتبهة للون بلوزتها الأخضر. كانت مكوية و لكن خف قماشها تحت الذراعين. تذكرت سولي أن تنحني للأمام كما تفعل نساء أخريات، أن تنظر الى وجه المدرسة وبين الحين والحين إلى الجاكت الأصفر الباهت ونعومته وإلى الشعر الأشقر المتموج. جلست المدرسة كهالة ذهبية في منتصف الكنبة في ذلك النهار، مثل مادونا في كنيسة و محاطة بنسيج من الصور الزجاجية الملونة.

وأخيرا نظرت المدرسة مباشرة إلى سولي. "كنت بالجوار وفكرت أن أمر عليك. أعتقد أن ذلك سيكون أفضل من إرسال خطاب".

" أوه؟"

"دونا ليست مستعدة لأن تنتقل إلى الصف السابع. والأمر غير قابل للنقاش. إنها لا تستطيع حتى عد النقود". أضافت، "وهي غير منسجمة مع الفتيات الأخريات".

وأثناء الصمت الطويل الذى تبع تلك الكلمات، أضيئت الغرفة مع مجيء سلحفاة الشمس الحمراء من خلف غيمة. شعر المدرسة التمع كالنحاس الأصفر. توقعت أن تقول سولى شيئا. سولى راقبت وجه المرأة وهو يضيء. ثم قالت للمدرسة، "لكنها شاطرة فى الفن، مع ذلك، ألا تعتقدين ذلك؟" ثم ذهبت سولى لتفتح درجا وأخرجت مجموعة صور كانت تحتفظ بها. "أترين؟" هذه لوسى فاين. تشبهها تماما". وهناك كانت لوسى العجوز تحمل بعض النباتات فى قطعة قماش على ظهرها. كانت محنية، تقريبا كل شعرها أبيض، منشغلة بالمدفأة. خلفها حوض معدنى للغسيل وبعض القمصان الرجالية تتدلى من على سور مثل الفزاعات وطائر الغداف يحوم فوقها، جناحيه السوداوين المزرقين مشرعين.

"جميلة. إنها جميلة".

سولى نظرت إلى المدرسة وكررت، "إنها شاطرة فى الفن" والمدرسة نظرت إلى سولى و لم تقل شيئا.

حتى وهى تتذكر ذلك الأمر الآن شعرت سولى بالخجل وشعرت بسخونة وجهها. خلعت مريلتها وعلقتها على مقبض الباب الثقيل والمصنوع من الكريستال. لون اليرقة، والضوء ينبعث من

خلاله. رفعت سولى المريلة ونظرت مرة أخرى إلى المقبض، الغرفة انعكست عليه مئة مرة، وهى واقفة معكوسة وناظرة إلى الأشباه الصغيرة للشقة الفندقية. تركته بدون غطاء. وضعت المريلة على ظهر كرسى المطبخ. مقبض الباب كان أفضل شىء فى الغرفة بالإضافة إلى المفرش وصور دونا. الصور كانت جميلة. هناك صورة رسمتها دونا لسولى من ظهرها، كتفاها ناعمان ومستديران، الشعر منسدل، الوجه المثقل يبين فقط من الجنب. وهناك صورة لنساء يرقصن فى صف. مرتديات تنانير مضمومة فوق أردافهن الثقيلة، فساتين عليها نقوش مطرزة، تصميم عودة الماس، ممر الدموع، يد الرب. كن متشابكات من اليد وحتى الكوع. مرايلهن البيضاء مربوطة للخلف. "فساتين مضحكة" علّقت دونا على رسمها عندما انتهت منه.

جميلة كصورة بطاقة بريدية، كانت السيدة ميرز واقفة على الباب وذراعاها مطويان، وإعلانات حمراء وذهبية تطير خلفها فى موقف السيارات. كان هناك إعلان معلق على هوائى عن سيارة شيفى مستعملة ثمنها ٢٥٠ دولارا فى صابون أبيض على حافة النافذة. السيدة ميرز، المديرة، كانت تلعب فى شعرها، وذراعاها ما زالتا معقودتين على بطنها. فتحت سولى الباب.

"لديك اتصال هاتفى من الفندق. يقولون إنك تأخرت كثيرا فى الذهاب اليوم".

"الأناناس؟ لن أذهب". لم تتفاجأ سولى للرسالة.

"لا تبدين مريضة بالنسبة لى". أنزلت السيدة ميرز ذراعيها إلى جانب ردفيها. كانا رفيعين فى البنطال الأبيض.

"أنا لم أقل إنى مريضة. فقط أخبريهم أنى سأذهب غدا".

نظرت السيدة ميرز إلى سولى بجدية أكثر. كما يفعل طبيب عندما يكتشف أنك لم تكونى تتسلين وأنت جالسة فى حجرة الكشف. حدقت فيها. " أنا لا أعنى التدخل فى شئونك، لكن للحق أنا لا أعرف أن أكذب. أنت أخبريهم. أنت قولى لهم ألا يتصلوا بك على هاتفى. قولى لهم إنك ستحصلين على هاتف خاص بك".

هزت سولى كتفيها. "هذا ليس كذبا". كانت فقط لمحة هزة كتف، خفيفة جدا فلم تلحظها السيدة ميرز. واستمرت فى الكلام برقة أكثر الآن. "ما هو الشىء المهم الذى يمنعك من الذهاب؟ ما الذى ستكسبينه من فقدانك عملك؟"

"انظرى هناك!" أشارت سولى إلى الشارع. "انظرى هناك. هل هذه قطتك الصغيرة؟"

بدت السيدة ميرز وقد نفذ صبرها. "أنت تعرفين أننى لا أقتنى قططا".

"ستدهس القطة".

أدخلت السيدة ميرز قميصها داخل البنطال. "انظرى، ليس من المفترض أن أعتنى بشئون المستأجرين".

"واضح".

قالت سولي.

"ماذا؟"

"قميصك. يشف من البنطال".

مالكة البيت لوحت بيدها بنفاذ صبر. "اسمعى ما أقوله. أنت قلقة بشأن قميصى".

سولى استمعت بنصف أذن. أومأت برأسها. كانت ما تزال تراقب القطة الصغيرة تتعثر بين عجلات السيارات.

"حسنا، حسنا، سأخبرهم". مشت السيدة ميرز وهي تتذمر قائلة كيف يمكن لهؤلاء الناس شراء حذاء أسود فخم مثل ذلك الموضوع فوق المائدة و لا يذهبون مطلقا إلى العمل. لابد أن الأمر صدقة من الحكومة أو ما شابه. هى نفسها لا تستطيع شراء مثل

هذا الحذاء وهى التى تدير هذا المكان. لوّحت بذراعها كما لو كانت تنظف ذهنها، تزيح سولى من رأسها هى وابنتها الهادئة التى تتسلل مثل الثعابين. تستحق أن تفقد عملها، تمتمت. وفى تلك الأثناء كانت سولى فى الشارع تنادى على القطة، قطة صغيرة بفراء مزيت. "غير مسموح بالحيوانات الأليفة!" صاحت السيدة ميرز فى سولى. "غير مسموح. نحن لا نسمح حتى بسمك الزينة".

بعد أن ضمت القطة نفسها على الكنبة، غسلت سولى يديها و عاد انتباهها إلى الحذاء. إذا كان مسروقا، يجب إعادته. هذا هو الصواب، أن تسلم الحذاء إلى موظفة البيع. قد تكون من ذلك النوع المتقدم فى السن الكفء اللائى يرتدين حلات قرمزية داكنة و قمصان مربوطة ببابيون عند العنق. حلق من اللؤلؤ. أو واحدة من الطويلات اللائى يرتدين فساتين خفيفة. إذا كانت موظفة صغيرة السن، ستكون متوترة وستنادى على المدير. المدراء صارمون فيما يتعلق بالقواعد. يتشبثون بالقوانين. ربما يستدعون الشرطة.

سولى لم تسرق أبدا شيئا. مجرد الفكرة جعلت قلبها يدق بشدة وركبها ضعيفة. ليس لديها جرأة تجاه المدرسين، الشرطة، المدراء، والآن الخوف غزا قلبها.

وضعت الحذاء فى المكان الذى وجدته فيه.

كان يومٌ هادئا. فترة بعد الظهر المبكرة تكون هادئة. حركة السير هدأت. الإعلانات الحمراء والذهبية كانت بلا حياة. يوم طيب للتمشية.

عبرت سولى قضبان السكة الحديدية التى انبعثت منها رائحة الشحم والمعدن المزيت. عبرت إلى تلك الرقعة الخالية الممتلئة بالأعشاب الشيطانية وبعض من عيدان الزنبق. خلف صف البيوت، توجد بحيرة، وبعض أشجار الدردار. تسمع صوت اليمام فى الصباحات من مطبخها، وكانت متعطشة لرؤية الماء، والسماء الزرقاء راقدة على سطحه.

سبحت بطتان فى الماء. الذكر ذو الألوان الساطعة كان يتباهى. هز نفسه، نفض الماء عن ريشه، وجدف بقدميه البرتقاليتين. الأنثى تجاهلته، وهى تغوص تحت الماء كاشفة عن جانب ظهرها. تغطس وتظهر. طائرة حلّقت فوقهم والتقطت سولى ضوءها منعكسا على الماء.

رجل عجوز يحمل عكازا أمال قبعته الداكنة. كان يرتدى معطفا ثقيلا كما لو كان الجو ما زال شتاء ولم يلحظ هو تغير الفصول، الشمس الدافئة والأوراق الخضراء المغبرة على أشجار الدردار القليلة. امرأة جلست على أرجوحة، طفلاها يدفعان بعضهما

البعض. حدقت المرأة فى البط. وجهها بدا سئما وخاليا من التعبير، نظرة الأمهات اللائى لديهن أطفال صغار. كانت ستتحدث مع سولى إذا كانت سولى أنحف و شكلها مختلف. إذا ما ارتدت سولى صندل خفيف وبلوزة مزهرة. المرأة أرادت الحديث مع شخص ما. ألقت بالتحية إلى الرجل العجوز.

عندما توجهت سولى عائدة إلى البيت كان عليها الانتظار أمام قضبان السكة الحديد إلى أن يمر أحد القطارات. كان قطار ركاب والوجوه تعبر مسرعة من النوافذ. لوح صبى صغير لها. صلصلت العجلات، معدن يحتك بمعدن. رجل وامرأة وقفا على رصيف المحطة، الريح تعبث بشعرهما ووجهيهما. ذراعه حول خصرها. زأرت الأصوات فى أذن سولى واهتزت الأرض تحت قدميها، ثم ابتعد القطار وصار شيئا صغيرا وخفيفا، فعادت إلى السير عبر القضبان ووسط أعشاب الحقل، بعيدا عن الحرارة والأسمنت باتجاه الرائحة الطازجة لمحل البقالة. رائع. رائحة الموز، عطر مسحوق الغسيل. كان هناك كراتان من البيض الناعم بيضاوى الشكل، لحوم حمراء. "بكم؟" سألت، وهى تشير إلى اللحم البقرى. الرجل ذو القبعة البيضاء أشار إلى العلامة. طلبت سولى رطلا فقطعه الرجل وغلفه فى ورق اللحم الأبيض، كتب ٣١. أعلى اللفة بقلم أسود.

غادرت سولى المتجر ومشت ببطء حاملة بين ذراعيها حقيبة كبيرة، ووجها ناحية الطريق تحسبا للحفر ثم صعدت إلى الرصيف. كانت تحمل حليبا وكيسا من الدقيق، نصف دستة بيض، تفاحة لدونا، وبطاطاتين. وأيضا علبة صغيرة تحوى قرفة. زجاجة ذهبية خضراء تحوى الرائحة الحلوة الحمراء لبلاد أخرى، جزر بنسائها البطيئات وهن يحملن لحاء الشجر البنى المتموج فى سلال. الصندوق المعدنى بلون فساتينهن، أخضر مائى وأصفر شمسى.

سوف تعد سولى بودينج من الخبز وتملأ المنزل برائحة الجزر والمكسيك، دفء وتوابل وناس ترقص فى ألوان ساطعة وأرداف مستعدة للرقص، على الأقل كما تخيلت.

عندما وصلت سولى، كانت هناك رائحة أخرى فى المنزل، رائحة عطر وشمع قلم الشفاة الذى استعملته دونا. الخدود المحمرة والشفاة الحمراء جعلاها تبدو أصغر من عمرها، ضد رغبة البنت. عيناها الغامقتان كانتا بريئتان رغم الشفاة القرمزية. إصبع الشفاة جعل لون بشرتها باهتا. وبان كل ضعف وجهها من خلال الخدود الموردة والشفاة المصبوغة، كما لو كانت ملامحها الباهتة تقويها، وتغطى على وعيها بتعبيرات وجهها وحركاتها غير السلسة، وانحناءة كتفيها. كانت تنظر بعيدا عندما يتحدث إليها الناس ولم ترفع نظرها الآن عندما وقفت سولى وذراعاها تحملان الحقيبة

الورقية البنية. وقفت لدقيقة واحدة قبل أن تضع مواد البقالة على المائدة، ثم قالت سولى: "إذًا". لا شيء أقل أو أكثر، فقط، "إذًا".

القطة نامت فى حجر الطفلة. مخالبها كانت ترتعش قليلا. ربما كانت القطة تحلم بشيء مبهج فى تلك الرعشة الخفيفة. كريمة، ربما. أو بإمساك بالذباب الأخضر. يا الله يا الله، تنهدت سولى، أى أشياء نضعها فى عقولنا. كلنا. نملأ أنفسنا بآمال. البحث عن دولار زيادة أو عمل جيد. رسم وجوهنا. حتى القطط. وها هى، القطة، تنعم بالراحة بينما تخطط السيدة ميرز هناك للتخلص منها. لا حيوانات أليفة. كل تلك الأحلام والآمال، ولا شيء هناك سوى القواعد والقوانين. حتى فى باحات الكنائس. حتى فى البيوت الكبيرة، تلك التي تنبعث منها رائحة الطلاء وعشاء الآحاد المقدسة. حتى فى غرف الفندق، لوحة على الباب تقول متى تغادر. إنجيل ممتلئ بما تفعل وما لا تفعل. رئيس عمل يمسك لك الساعة. إشارات حمراء. وهناك فتاة بشفاة حمراء، عيناها لا تقابل عينيك ورأسها مليء بأشياء جميلة ورجال سيحبونها فى يوم ما ويخرجونها من وحدتها لساعات قليلة. رأسها امتلأ باللآلئ، فساتين من الحرير، شعر لامع. عطر باريسى فى زجاجات زرقاء أنيقة. كل تلك الأفكار تتطاير حولها كديك يحوم حول شيء ما على الطريق.

كانت سولى هادئة وهى تضع مواد البقالة. خلعت نعلها ومشت على مشمع الأرضية الرمادى، قدماها يصدران صوتا حيوانيا خفيفا. أشعلت عود ثقاب ووضعته فى الموقد. رائحة الكبريت ثم الجاز وهى تضع العود فى ثقب الإشعال بالموقد. ومرة واحدة، مع اشتعال النار، كان هناك صوت احتراق، الفرن المصنوع على شكل صندوق ينفتح. دونا، ممسكة بالقطة، وقفت بجانب المائدة وتتبعت الرسوم المنقوشة على الرخام باصبعها. "إنه قرد".

"هل يتحدث؟"

"يقول إنك طردت من العمل لتغيبك اليوم".

وضعت سولى شوكة. "من يقول ذلك؟"

"القرد يقول إن السيدة ميرز أخبرته".

"القرود يكذبون. بالإضافة لذلك، ما الذى يفعله و هو يتسلى مع نساء لهن شعر جذوره سوداء؟"

"هل سمعت عن التلفاز؟ إنه شيء جديد. مثل المذياع، لكن به صور. والصور تتحرك كما فى الأفلام." كانت مملوءة بالعجب ومسحورة به. عيناها غامقتان أكثر الآن. "لقد رأيت واحدا".

"كيف يحصلون على الصور؟"

"تأتى من خلال الهواء".

"صور؟ تقصدين أنها فى الهواء؟"

"وهنا أيضا وإذا استطعنا إشعال هذا الزر ستظهر. نعم، ستظهر" ورأت دونا الشقة تمتلئ برجال ونساء، حيوانات، أماكن جديدة، فى كل مكان حولها صور أبيض وأسود لبقية أرجاء العالم.

"يفكرون فى كل شىء، أليس كذلك؟" هم فقط يجلسون على ظهورهم هناك فى واشنطن مع أيزنهاور العجوز ويفكرون فى كل شىء. " سولى دعكت قطعة الصابون وهى تتحدث وغسالة الأطباق تمتلئ بالرغاوى. ابتسمت لدونا. جففت يديها. "اجلسى هناك. امكثى هناك" ذهبت إلى الكنبة. "لا تتحركى" بقيت دونا عند المائدة، بينما انحنت أمها ومدّت يديها إلى الحذاء أسفل الكنبة. تصلبت يدا دونا.

"طفلتى" قالت سولى، وهى تقف. "أنا لا أعرف من أين ذلك الحذاء لكنه على مقاسك تقريبا".

دونا كانت ساكنة. الضوء الساقط من السقف كان على شعرها وخلفها، اللمبة الصغيرة رسمت خطوطا حولها، كنار صغيرة، كعود ثقاب مشتعل. وجهها الرقيق بدا ناعما رغم الشفاه الحمراء.

"لقد وجدته. هيا، جربيه".

وقفت دونا ووازنت نفسها بالارتكاز على سولى ثم إلى ظهر الكرسى. وضعت قدما صغيرة فى فردة حذاء ثم الأخرى. بانت أكثر طولا ونحافة مما قبل. بدت هشة. تصلبت عضلات الساق. تأرجحت.

ذهبت سولى إلى الخزانة وفتحت بابها لتكشف عن الصورة الموجودة بداخلها. "انظرى" قالت وقد توقف نفسها تقريبا. "انظرى. أنت جميلة".

نظرت سولى إلى نفسها من أعلى وأسفل. نظرت الى عمق المرآة بحثا عن صور متحركة لرجال يطيرون فى هواء عادى، نساء يبعن شامبو هالو على شاشة التلفاز. سمعت أصواتهم. نظرت إلى الحذاء الجلدى الأسود. رفعت إحدى قدميها ومسحت الحذاء بظهر ساقها. وقفت، ولفت حول نفسها أمام المرآة. بدت بشرتها رطبة، مثل بشرة طفل فى دفئها وخلوها من البثور.

وقفت سولى، قدماها الحافيتان ساكنتان، تهز نفسها قليلا، تتأرجح فى مكانها. دونا استطاعت رؤية أمها فى خلفية المرآة، امرأة سمراء، بلا ملامح وداكنة، واقفة بعيدا شعرها معقود، قدماها حافيتان، ثقل ما فى طريقة وقفتها هناك فى ذلك الهواء، نفس ذلك الهواء طفت من خلاله كل المطابخ البيضاء، كل النساء الشقراوات

مثل الأشباح. تحركت سولى نحو المرآة حتى ملأت صفحتها، سمارها مثل ظل لطيف بجانب الفتاة الباهتة، يدها على كتف الفتاة الصغير. "جميلة" قالت، "شكلك جميل جدا".

ناهولويا(*)

ماري تول مونتين

لا توجد يدان مثل يدى أمى. كانتا صغيرتين بأصابع طويلة ورفيعة، وإبهامان منثنيان عند الطرف. الأظافر بها علامات على شكل سبعة بسبب تقطيع السلمون. فى وقت السمك كانت للأظافر حواف سوداء، يبهت لونها مع الشتاء إلى أن تصير بلونها الوردى البنى المعتاد. اليدان كانتا تتصرفان كما لو كانتا عليمتين بما تفعلانه. عندما تستريح أمى كانت اليدان تنفردان، واحدة فوق الأخرى، ويبدو شكلهما وكأنهما نائمتان. لكنهما مستعدتان دائما للعمل فى أى لحظة. وتفعلان، فإن الإبهامين المنثيين للخارج يعطيان اليدين هالة من الانشغال. كانت بشرة يديها ناعمة وخشنة فى ذات الوقت. فكرت بيدى أمها يقتربان منها ومن مايكل، عادة محملتين بأشياء. جعلها ذلك دائخة ومرتاحة.

فى حلقة السمك أمضت ساعات وهى تشاهد تلك اليدين وهما تعملان.

اليد اليمنى نظفت الجسد الرمادى الوردى الضخم لسمكة السلمون الأم وحتى الرأس، حيث قامت بقطع قطعتين صغيرتين بسكينة السمك الحادة التى جعلت رأس السلمون تنزلق على الطاولة الزلقة. من تلك اللحظة وصاعدا، تحركت اليدان بسرعة رهيبة! كل حركة كانت مهمة. أولا أزيلت الزعنفتان العلويتان وجُزت السفلى على الصدر الإجاصى الشكل والزيل المروحى . ثانيا، ارتفعت يد أمي وشقت السكينة خطا أحمرا طويلا فتح بطن السلمون. وفى وسط خطوطها الفضية يوجد البيض الأحمر الهلامى الصغير. ببطء شديد، انتزعت اليد اليمنى مجموعة البيض. لم يكن هناك الكثير، لأن السلمون تكاد لا تأكل شيئا وهى فى طريقها إلى البيت مع بيضها، الذى قالت أمى إنه السلمون البيبى. الآن استخدمت اليد اليمنى السكينة لشق خط أحمر سريع آخر بطول سلسلة الظهر عاجية اللون. ضغطت كلتا اليدين على النصفين وسطحتهما. التقطت اليدان السكينة ثانية وقامت بتقطيع جسد السلمون السميك إلى شرائح. وتلك القطوع كانت دقيقة جدا لدرجة أنها حافظت على جلد السلمون واحدا غير مجزأ. كان هناك الرائحة الطازجة لسمك جديد، الرائحة التى اعتقدت ليدوين أنها تتذكرها دائما تنبثق، من مكان داخلى مظلم. كانت رائحة طيبة، وجعلت ريقها يسيل. فكرت بأنها تحب أن تذوق قطعة من تلك القطع الجميلة مخملية الحمرة، الآن.

عندما تقطع أمى السلمون، تتصرف اليدان بحرص أكثر من المعتاد. ويتطلب نقع السلمون فى الماء عمل كلتا اليدين، وكذلك رفع نصفى السمكة كى يتدليا على طاولة التجفيف. ظلت ليدوين تفكر بطاولات التجفيف الممتلئة بكينج سلمون الأحمر، فتغضنت بدايات التذوق بقوة. تقريبا استطاعت تذوق السمك المدخن الحلو، الزيت الذى أدفأته حرارة الشمس. كم ثقيلة سكينة السمك، كيف قاوم جسد السلمون شفرة السكينة الحادة، لكنه دائما ما يستسلم وينقسم تحت نصلها. فى يوم ما ستقطع السلمون بنفسها. عندما تصبح فى العاشرة أو ربما التاسعة، ستسمح لها الأم بالقيام بذلك. ستصبح يداها حينئذ كبيرتين بالقدر الكافى، لكنهما الآن صغيرتان جدا. معظم أسماك السلمون كانت بحجمها. أكبر كثيرا من مايكل، فكرت.

كان يبتسم إليها ابتسامة عريضة ذات سن مفقودة. جعله ذلك يبدو بريا وخجولا. ظهرت سترة زرقاء من تحت مريلته المرقعة التى كانت لـــ ليدوين ذات مرة. "أين أمى؟" سأل. الريح داعبت خصلات شعره المتموج.

"فى المنزل يا مايكل. " تطلعت إلى النافذة. لا أحد هناك. كانت مستاءة فى تلك الأيام. أمى وأبى تكلما كثيرا، بسرية. الآن،

هى ناعسة وكسولة لأنها ظلت يقظة لفترة طويلة تحاول سماع ما كانا يقولانه. ماما كانت متعبة جدا، أيضا. أشياء مرعبة حدثت بالأمس: أولا الجنود الذين كانوا يتشاجرون فى الساحة، ثم الراهبة التى جاءت تزور أمى، وحجاب أسود ثقيل على وجهها. بدا الأمر وكأن القرية كلها صارت مجنونة.

جاءت أمى إلى الباب. كانت المرة الأولى منذ الغداء التى تخرج فيها تستطلع ما يحدث. ليدوين كانت راكعة بجوار بيت شتوى. كان هناك صف من ثلاث قطع، كل واحدة يعلوها سطح رقيق. وسخ الطينة جفّ، والجدران المتقشرة كانت بلون بنى باهت، لون الفطير. أشارت. "انظرى إلى ناهولويا"!

"طفلتى، أتصنعين بيوتا شتوية أنيقة" الأم جلست معها على الأرض.

"ربما نذهب إلى كايوه هذا الشتاء ونسكن فى ناهولويا" قالت ليدوين، وهى تشعر بالإثارة داخلها من الفكرة. لم تذهب أبدا إلى كايوه لتخيم فى الشتاء. أحيانا كانت الأم الجد والعم والعمة وأطفالهم يذهبون هناك إلى أراضى الصيد القديمة. من المفترض أنه مكان رائع.

"امممم–همممم. " صار وجه الأم جادا.

"لكنك قلت إنه يمكننا!" صاحت ليدوين.

"أنا قلت ربما، أيتها الشقية الصغيرة!" أمسكت بها الأم وحملتها إلى المشاية. مايكل كان يتدحرج حولها، وهو يقهقه. وفجأة سقط متعثرا فى الحشائش الناعمة. الأم ضحكت بشدة والتقطته من على الأرض حتى لا يفزع، لكنه صوصو وصاح غاضبا على غير العادة.

ليدوين تذمرت، "لماذا لم تأتى لترين البيوت الشتوية التى صنعتها؟ ناديتك لكنك لم تسمعى".

رفعت الأم شفتها باتجاه خدها. "لا يوجد وقت كاف. العديد من الزيارات. " تثاءبت.

"لماذا يأتون كلهم إلى هنا للزيارة؟" كشرت ليدوين.

"إنها فقط واحدة من تلك الفترات. " حملت الأم البيوت الشتوية الطينية إلى الكوخ الخشبى ووضعتهم به. عندما صبت الحليب فى الطاسة ليسخن، تقلصت ملامح مايكل استعدادا للبكاء. وضعته بميل على حجرها وفتحت فمه لتتفحصه. "هناك سن جديدة على وشك الطلوع" قالت. مطت ليدوين عنقها لتنظر. "أسنانه" قالت الأم، وهى تريها السن الجديدة تشق طريقها.

"أسنانه" رددت ليدوين. "عندما كنت فى الرابعة هل كان لدى هذه الأسنان اللبنية أنا أيضا؟"

"أكيد، و كنت معتوهة أيضا مثله الآن".

"هل كنت حقا؟"

"أوه، أنت فتاة صغيرة مخبولة". ابتسمت الأم ابتسامة عريضة فى عينى طفلتها. "أنت شبه جدك. انظرى هناك".

نظرت ليدوين إلى نفسها فى المرآة. لم تظن أنها تشبه جدها على الإطلاق. كانت قصيرة جدا و هو كان طويلا.

"أترين؟ قصيرة وعريضة مثله. ولك نفس مزاجه". بانت غمازات خدى الأم.

رضع مايكل بصوت عالى من زجاجته. "لم يعد مجنونا. انظرى إلى ذلك. كان مجنونا جدا اليوم، مع ذلك. صرخ كثيرا". ربتت ليدوين على جبهته الدافئة الصغيرة. الآن وعمره أربعة أعوام، فكرت، ينبغى أن يأكل طعاما عاديا مثلما أفعل. ليس فقط ذلك الحليب. لقد كان دكتور هارى يستشيط غضبا عندما كانت ترفض شرب الحليب. لم تكن تحبه على الإطلاق. ربما إذا كانت ذهبت خارج البلدة، كانت ستشرب حليب البقرة الحقيقى. الآن

يشربون الحليب المعلب المخلوط بالماء. الأم ونيللى اضطرتا للشخط فيها كى تشرب ذلك الحليب، لكن مايكل لم يزهق منه أبدا. رقّ وجهه الآن، وسطلت رموشه تتغلق. ذراعاه ارتميا للخلف وفمه انزلق من على الزجاجة. ماما وضعته فى التسيبى(*). "يمكنك أن تغطيه" قالت.

التسيبى كانت عبارة عن أرجوحة أطفال مصنوعة من كيس مسطح من الكنفاة المتينة مساحتها ياردة مربعة، معلقة إلى السقف بأربعة أحبال مجدولة معقودة فى لفة زنبرك رمادى سميك، فصارت على شكل كرة، تتفرع منها الأحبال الأربعة لتصل إلى زوايا الإطار وتعقد كأنشوطة تحت حافة الخشب العريضة التى شدت عليها الكنفاة التى تثبتت هى والأحبال بمسامير دقّت على حافة الخشب. كانت قوية وناعمة وذات عمق كاف كى يحوى مايكل بأمان. وبها أيضا مقبض يد يجعل الزنبرك يتراقص بخفة كى ينام مايكل، وأخرى أشد تدفع الزنبرك فى حركة أقوى كى يستيقظ الولد دون أن يفزع. العم أوبال هو الذى صنعها. ليدوين ستحصل على واحدة أيضا عندما يصبح لديها أطفال. لم تضيع أبدا فرصة لمشاهدة مايكل وهو ينام. عندئذ تبدأ فى هز الأرجوحة برقة. لكنها كانت متحمسة جدا اليوم بدرجة لا يمكن معها أن تظل ساكنة. سحبت البطانية الفرو وثنتها حوله.

ماما جلست فى كرسيها الهزاز بجوار النافذة. "تاولينى الكشتبان" قالت. كان شيئا اعتياديا عادة ما يقومان به معا، فأعطتها ليدوين الكشتبان، الذى كان عبارة عن قطعة من قرن أيل، مبرى ومنثنى كى يناسب إبهام ماما. أدخلت ماما خيطا رفيعا فى الإبرة. الخيط كان متينا من النوع الذى يستخدم فى خياطة الجلود المدبوغة. وتلك الجلود كانت قوية. راقبت ليدوين أمها بتركيز. كومة من الخرز، وردية، فضية، حمراء، التمعت تحت أشعة الشمس التى ملأت الغرفة. التقطت تلك الأصابع الطويلة خرزة وردية على طرف الإبرة وخيطتها على قطعة الجلد التى وضعتها فى حجرها.

"يوم ما ستقوم ليدوين بعمل ذلك". ارتكزت على ذراع الكرسى الهزاز. "تلك ستكون قفازات" أعلنت. "قفازات لـــ ليدوين فى هذا الشتاء".

"نعم" تنهدت ماما. وعلى وجهها تلك النظرة المتأملة مرة أخرى. " لـــ ليدوين فى هذا الشتاء".

"ما الأمر؟" نظرت ليدوين إلى وجه أمها المنحنى فوق الخرز الملتمع بين يديها البنيتين.

نظرت ماما اليها. "طفلتى" قالت بتردد. كان هناك شىء مختلف فى نبرة صوتها اليوم. "يجب أن آخذك أنت ومايكل لتمكثا مع الدكتور ونيللى".

"لماذا؟" فكرت ليدوين: مجددا؟ لابد أنها مزحة.

"سأكون مشغولة جدا هذا الأسبوع".

"ما الذى عليك القيام به؟"

"على أن أستعد فى حال طلبنى جدك لحضور اجتماع المجلس".

أشرق وجه ليدوين. لن ترحل هذه المرة.

"اجتماعات المجلس عنك أنت و مايكل".

"لماذا؟ ماذا فعلنا؟"

"نيللى والدكتور سألانى إن كانا بإمكانهما تبنيكما. أنت تعرفين ذلك".

أوه، ذلك الهراء الخاص بموضوع التبنى مجددا. "هل هذا ما أثار جنون جدى بالأمس؟"

"اممم- هممم".

"تعنين أنك تريدين إعطاءنا إليهم؟"

"ماما نظرت إلى خارج النافذة. بدأت الريح تهب على العشب، واهتاج النهر. "نعم" قالت.

احمرت عينا ليدوين. "لماذا تريدين القيام بذلك، يا ماما؟"

"أوه، يا طفلتي، أنا لا أريد". الكلمتان الأخيرتان بدوا ثقيلتين في أنفها. لكنها استمرت في الكلام بهذا الصوت المضحك. "لأنني مريضة. هذا هو السبب الذي جعلني أتركهما عندهما لفترات طويلة. هما يستطيعان الاعتناء بكما أفضل".

لم يكن الأمر مزحة على الإطلاق إذا. فجأة تذكرت ليدوين ماما عندما كانت تكح في هذا الصيف، حتى عندما كان الطقس حارا. وكيف سمعت همسات صغيرة عندما وضعت خدها على صدر ماما. كانت تعتقد في البداية أن هذه هي طريقة تنفسها. هل كان ذلك جزء من المرض الذي كانت تتحدث عنه؟ "هل يريدان إبقاءنا طوال الوقت؟ في الليل وكل شيء؟"

"نعم، مضبوط". أبقت ماما وجهها منخفضا وهي تنظر إلى الخرز. لماذا لا تنظر إليّ؟ فكرت ليدوين، وهي تضع يديها على وجه ماما. استدارت لتنظر خارج النافذة، بدت وكأنها رحلت بعيدا.

بسرعة جدا، عانقتها ليدوين. "هل تحبيننى؟"

صدر عن صدر ماما صوت عميق وبدأت تكح. أحضرت ليدوين واحدا من مناديلها البيضاء الكبيرة وتمخطت ماما. حدقت فى عينى ليدوين، والآن عادت من حيث كانت قد ذهبت. "طبعا أحبك، أيتها الحمقاء الصغيرة. أنا لا أريد أن تذهبى. لكن إذا فعلت، أعرف أنك ستعيشين حياة لطيفة، كما يعيش الدكتور و نيللى".

"جدى لن يدعهما يأخذانا".

"ليس لديه أى شىء يقوله فى هذا الشأن. هو فقط يريد التأكد من أن المجلس يقوم بذلك بشكل صحيح. يجب أن يقرروا. سيبقى معهم إلى أن يتخذوا القرار". انتزعت ماما خيطا قصيرا قريبا من العقدة التى عقدتها خلف القفاز. وضعت الجلود فى الصندوق وأقفلته. كل شىء فى الغرفة صار واضحا و حادا مثل انعكاس ليدوين على المرآة. لن تنسى أبدا الخرز وهو متوهجا كالنار تحت وهج الشمس.

طوقت ماما بذراعيها. أرادت أن تحضنها بقوة حتى لا تذهب بعيدا عنها أبدا، أبدا. "أنا لا أريد الذهاب إلى أى مكان، ولا حتى مع مايكل. أنا أريد أن أبقى هنا".

"آه" قالت ماما لنفسها. دفنت وجهها فى عنق ليدوين. كان نفسها دافئا على جلد ليدوين، وكلماتها صنعت نسمات من هواء رطب، مشدودة على الكرمشات الصغيرة أسفل ذقنها السمين. "أنا أيضا أريدك أن تبقى".

"لكن لماذا علينا أن نتركك؟ ألا يمكن أن نزورهم مثلما نزور العمة مادلين؟" ابتعدت ليدوين ونظرت فى عينى ماما الكبيرتين، لون التوت الأسود البراق.

"الآن، أخبرتك أنى مريضة. لا نستطيع فعل شىء حيال ذلك. من حسن الحظ أن آل ميريك موجودون هنا. لقد قلت لى إنك تحبينهم. إذا لا تحبينهم لماذا تريدين الذهاب لزيارتهم طول الوقت؟" كلمات ماما بدت وكأنها أصداء ترتد فى كهف كبير مظلم.

ليدوين انتبهت إلى أن شفتها السفلى بدأت تبرز للخارج. الجو بدأ يبرد خارج البيت. لابد أنها الريح. ظلت صامتة.

"هما لطيفان معك. يحبانك يا ليدوين. ألا ترين، بعد فترة سيشتد مرضى" ارتفعت يداها الخشنتان وأمسكتا بخدى ليدوين، ورأت ليدوين انعكاسها مثل توأم أسمر صامت فى عينى ماما.

"ألن تتحسنين أبدا؟" قفزت الدموع من عينيها. ومسحتها ماما. ثم دفنت رأسها فى مريلة ماما ويداها أخذتا تربتان على شعرها.

"ليدوين، تذكرى هذه الكلمة. السل. أمك عندها مرض السل، ولا تستطيع أن تشفى".

"شيء فظيع، أن تتألمى" بكت ليدوين، وتلقى بذراعيها حول ساقى ماما، تعانقها. استمرت اليدان فى التربيت. اهتزت ماما برفق فى الكرسى، وكان الهدوء يعم الغرفة باستثناء الصرير المنخفض للكرسى الهزاز.

"يا طفلتى، أتذكرين كيف كان جدك غاضبا بالأمس، وهو يتحرك من مكان لمكان؟" ماما كانت ترتعش قليلا. لابد أنها كانت تضحك. ليدوين رمقتها خلسة. بانت كل غمازات ماما وعيناها كانتا مغلقتين. صاحت، "هاهاها! هذا الجد المضحك!" بدأت ليدوين تفكر فى الجد وكيف كان شكله. كان وجهه محمرا، حاجباه هابطان على عينيه بحيث شكلا شرابة بيضاء أخفت بؤبؤ عينيه، ويا إلهى كيف كان غاضبا، وهو يصرخ ويصرخ. وسرعان ما كانت تضحك هى أيضا، واستمرت الاثنتان فى الضحك إلى أن تعبتا ولم تستطيعا الضحك أكثر من ذلك، وكانتا تتعانقان وتقبلان بعضهما البعض. مسحت ماما وجهيهما وهزتها لفترة. صرير، صرير، هذا هو كل ما كان يمكن سماعه، والاثنتان كانتا دافئتان فى ذلك المكان الحميمى الهادئ.

وفجأة اعتدلت ليدوين فى جلستها. "لماذا لا نعيش مع أبى فى الثكنات؟"

"هو يعمل عند العم سام، وينبغى عليه الذهاب إلى حصن جيبون عاجلا لأن العم سام يحتاجه هناك".

"أوه هذا العم سام!" ملأت ليدوين المغطس الجرانيتى بدلو الماء. ابتلعت جرعة كبيرة من ماء النهر الجارى وهى تحاول بلع شىء بدا أنه علق فى حلقها.

نظرت إلى خارج النافذة. اشتدت الريح لدرجة أنها كانت تهدر حول الأشجار، وتقلبها كما لو كان لديها ملعقة كبيرة مثل السحاب. كانت الريح تهب مصدرة أنينا فوق السطح وداخل أنبوب الفرن فاستثارت النار وجعلتها تشتعل وتتوهج بسرعة أكبر كشياطين حمراء. صوتها كان مثل حشد من الناس يغنى من بعيد.

لقد عصفت بالبيوت الشتوية الطينية. فقط ثلاث دوائر بنية صغيرة، هى كل ما تبقى على الأرض.

تعليقات:

* ناهولويا. "بيت شتوى تحت الأرض مبنى بالطريقة التقليدية" عند قبائل ألاسكا آثاباسكان.

* تسيبى. "أرجوحة الطفل" بلغة آثاباسكان.

تنين النار اسقط بجانبى مرة أخرى

روبرتا هيل وايتمان

"لن تجده أبدا، يا آلان" سخر الصبى الأكبر، وهو يفرد ساقيه على البطانية المجعدة فوق فراش آلان. ألقى آلان بقمصان وملابس داخلية إلى جانب الدرج الخشبى فاهتزت المرآة المثبتة أعلاه. وبينما هو يروح ويجىء فى المكان غالقا درجا وفاتحا آخر، كانت الشمس قد اختبأت فى سحابة صيفية. راقب ليل حركة أخيه القلقة، ثم تقلب على ظهره ليحدق فى السقف باقتناع بارد. بين الحين والآخر، كان آلان يرى وجه أخيه يتوهج فى المرآة بجمال متوازن: عينان كبيرتان وخدان عريضان، أنف مستقيم وفم مرتفع قليلا، عاكسا سخرية خفيفة وإن كانت دائمة. الصبى الأصغر، الهزيل ذو السبعة أعوام، بحث تحت كومة من الملابس الجينز وأمسك بقطعة من الجرانيت.

"أخيرا وجدتك" صاح وهو يربت على الصخرة ذات اللونين الأسود والأبيض. قفز أمام أخيه إلى حافة النافذة ووضعها هناك انتظارا لأشعة الشمس كى تضيئها.

"هذا لن يفيد" قال ليل، وهو ينزلق نحو النافذة ليلقى بنظرة. "أتعتقد أن الصخور حية؟ اسمع، يا معتوه، لن يسقط مذنب آخر لأنك أنشأت صرحا من الصخور. كل تلك الحكايات التى أخبرك بها جدى هى خرافات. ليست خرافات صغيرة بل كبيرة. أتعتقد أن شيئا سيحدث لأجلك أنت؟ المذنبات والنيازك تحترق. جمرات صغيرة لا تتعدى حجم النملة. أتسمعنى؟" مع كل صوت، كان ليل يفتح قبضتيه فى وجه آلان الذى يشبه وجه ابن عرس. آلان كان يعرف الخطوة التالية- خبطة على الذراع. أخذ الصخرة بسرعة ووضعها في جيبه، جرى مسرعا فى الصالة المعتمة أمام غرفة نوم ليل إلى غرفة المعيشة.

ليل تبعه وأمسك به قبل أن يصل إلى الأريكة وقبض على ذراعه النحيفة بقوة إلى أن تحركت خيوط عضلاته تحت الضغط.

"أعطها لى أيها الأحمق" قال ليل.

"لا. دعنى وشأنى" صاح آلان، وهو يلتوى محاولا الوصول إلى الأريكة. من غرفة المعيشة سمع الصبيان صوت أمهما وهى تغسل الصحون.

"ليل" نادت. "هل تريدنى أن أستدعى العم جونيور مرة أخرى؟" طقطقت الصحون فى حوض الغسيل.

"هذه المرة سأتغاضى عنها" قال ليل بينما أخيه يتأرجح تحته على الأرض. "لا أريد أن أسمع عن تنين النار ولا هذه الحكايات القديمة مرة أخرى. بعض من أصدقائى يعتقدون بأنك غريب الأطوار جدا لدرجة أنهم لا يصدقون أنك أخى".

دون أن ينظر خلفه، مشى ليل فى الطرقة الضيقة أمام المطبخ وخرج من الباب الخلفي. نهض آلان وجلس إلى المائدة. راقب أمه وهى تغسل الصحون وتنظر من النافذة الموجودة أعلى الحوض. امرأة ضئيلة ذات شعر متموج بدأ يشيب. تعتنى به وبـ ليل الذى صار له رأس أطول من أمه. العام الماضى، العم مارتين، أخوها الأصغر، دخل السجن ليقضى عقوبة، لفترة طويلة، يقولون. بعد ذلك، انتقلوا كلهم مرة أخرى إلى أونيدا(*). ثم فى الشتاء الماضى، ذهب الأب إلى شيكاجو بحثا عن عمل. يبدو أنه مضى زمن طويل منذ أن راسلهم آخر مرة. وضعت أمه طاسة على رف خشبى كى تجف وقرأ آلان صلاة، وهو يتمنى أن يعود أبوه بسرعة.

"أتعرفين يا أمى؟ سأحضر شيئا عظيما حقا، شيئا قال الجد أمورى(*) أن أحضره للناس جميعا".

رمقته أمه بنظرة عبر الخزانة الموجودة فى الزاوية. "أشك فى أنك تدرك كيف كان جدك خرفا قبل أن يموت. كان سيأتى ليعيش معنا هنا الآن، لكنه كان يبلغ من العمر ستة وثمانين عاما وكان من الصعب الحديث إليه".

"سأفعل مثلما قال لى، وسأحضر تنين نار لينقذ الناس" قال آلان، وهو يمشى أمامها باتجاه الباب الخلفى.

"حبيبى" ردت أمه، "الشيء الوحيد الذى سينقذ الناس هو العمل الجاد. هل نظفت غرفتك؟" لكن آلان كان قد خرج من الباب وركض وسط الأشجار وفى جيبه قطعة الجرانيت.

"يا صخرة" همس وهو يسير بين الأشجار خلف المنزل. "ساعدينى. لقد حملتك من المحجر وسآخذك الآن الى الجبال لتكونى مع الآخرين. أنا لا أعرف إذا كان الأمر ذا نفع لأن الخليج الأخضر قريب جدا. " تذكّر كيف هزّ الجد أمروى رأسه عندما تحدث عن الخليج الأخضر أو كناتا- كى، كما كان يطلق عليه بالهندى. أحتاج الآن إلى بضعة نبتات، الصخرة المناسبة، والليلة المناسبة فى شهر أغسطس. صخرة بيضاء أرشدت الناس خلال فترات الحروب الطويلة، لذا أطلقوا على أنفسهم "وإن يوت أ- أ جه"، شعب الصخرة الواقفة(*).

كان يستطيع سماع لثغة الجد أمورى وكلماته، الهندية والإنجليزية، تنطلق مع الريح الصيفية. آلان كان يستطيع رؤية الصخرة وهى تتحرك، مثل السلحفاة، وسط أشجار الغابة. تلك الغابات ليست مثل غابات هذه الأيام، قال الجد. الآن الناس يرون ثلاث أو أربع شجرات مقطوعة من جذورها و يسمونها غابة. زمان الغابات كانت ممتلئة بملايين من الكائنات الحية. التمعت الصخرة فى الوسط وأخبرت الناس كيف كانت كل الكائنات الحية مرتبطة ببعضها. وبينما هو سائر حاول تذكر أسماء النباتات. نبات الدموية تتجذر على طول الجدول، زهورها الباهتة تضامت فى الظل والرطوبة. زهور الأبدية ارتفعت على امتداد الجبال لتشكل إكليلا من الزهور البيضاء ذات السيقان الناعمة كالشتاء. ماذا كانت أسماؤهم؟ انتفخ عقله بالإجابة. تواتنيكواهتالياكس. الدموية. الآن الأخرى. أخرج قطعة الجرانيت وقربها إلى أذنه، آملا أن يسمع صوتها الناعم الرنان. ربما تعود الكلمات المفقودة إليه بيسر أكثر بعدما أتى تنين النار.

لم يوقظ المنبه أى شخص آخر، نهض آلان وهو مرتديا كامل ملابسه ووضع مرآة صغيرة، كيس تبغ، وخشخيشة فى جيوبه. أوراق الشجر تحركت فوقه وهو يقفز عبر الملعب، المبنى الاجتماعى، وسكن كبار السن، حتى وصل إلى الطريق. تموج ضوء القمر على الغابات

والمروج، حيث صاح طائر قبّرة متفاجئ وسط أعشاب داكنة. الجداجد التى تصفر لطفت مزاجه، فى حين روائح الزهور العبقة والدافئة التى حملتها الريح جعلته يشعر بالجوع فى رئتيه.

تسلق التل ومر أمام الخيول النائمة فى الحقول التابعة الآن للمالك الجديد الأبيض. ماذا تعنى الخيول والبيوت المسيجة جيدا مقارنة بقوة تنين النار، ابن ذلك الكائن الأبدى، لادنالوديبيدا(*)، هو الذى يخبط رأسه؟ الأذنين طحلبية من الصمت، أبطأ آلان للمرة الأولى لينظر إلى النجوم السابحة فى السماء. متعجبا ومنهكا، دلّى قدميه أسفل التل وشعر بشىء غامض قريب من الجنون أو من الحب. توقف عن السير عدة مرات ودعك كيس التبغ بإبهام متعرق.

"سأفعل مثلما قلت" همس لنفسه. "أحضر تعويذة لتساعد شعبى". فكر فى المتاعب التى قد تسببها مثل هذه التعاويذ، ومع ذلك قال الجد إننا نحتاجها اليوم مثل أى وقت مضى، على الأقل مثلما نحتاج السيارات، الأموال، والقنابل الذرية.

حطّ الناموس على عنقه وجبهته أولا. إنهم البقايا، أخبرهم، وهو يتوقف بين كل عبارة والأخرى مثلما كان يفعل جده، إنهم بقايا القاتل العملاق الذى تفتت إلى قطع صغيرة منذ زمن بعيد.

بعد أن قدّم التبغ إلى الماء، عبر الجسر، وبدأ فى تسلق التل، شيء ما على هامش حواسه جعل عنقه يشعر بوخزة خفيفة. نوع من الحك المعدنى قطع هواء الليل الرطب. كلب مخطط بالأبيض والبنى قفز على العشب باتجاهه. سمع نباحه فى الريح وراءه، وسلسلته تصلصل فى العشب. تبعه الكلب على امتداد المستنقع.

بامتداد السلسلة الجبلية، كانت أضواء المحمية متناثرة، حمراء، زرقاء، بيضاء، وباتجاه الشمال الشرقى، أضاء توهج الخليج الأخضر بعضا من السحب وأذاب النجوم. كان آلان يحب الليل الذى يضيئه القمر، الألوان الهادئة للأشجار، وعطر الزهور. فى ذاك اليوم، الثالث عشر من أغسطس، رقد على العشب وفكر كيف تغير ليل. لم يكن الأمر السنوات التى تفصل بين عمريهما. جروح سرية وأحقاد نمت ببطء بعد أن رحل الأب. ليل، الذى فى وقت ما أحبه بشدة والذى كان يطارده، يدغده إلى أن يبول، الآن يرفض أن يشاركه أى شيء. ضاع ليل فى مكان ما فى البيت بينما ضاع الأب فى مكان ما فى شيكاغو.

ولا نجمة تسقط قليلا من الضوء. ربما لم ينتبه للشهب. بحلق فى الظلام نحو طريق السنديان ورأى الكلب يحك نفسه على بعد عشرين قدما أمامه. بين الحين والآخر، كان يلقى بزيله فى

العشب وتلتوى أذناه للأمام والخلف كما لو كان يستمع لصدى أصوات بعيدة.

"تعالى يا ولد". ناداه آلان بتردد، وهو يريد لقاء أحد غير السماء الواسعة والأرض المظللة. "ربما تكون كلبا مجنونا ولهذا لا تريد أن تأتى". نبح الكلب، وهز ذيله، وتحرك بعيدا. وهو يمر، رأى آلان عينيه الذكيتين وسمع تنشقه. ثم وجد طريقه بين الأشجار إلى أن وصل إلى شجرته المفضلة، سنديانة ضخمة تكبر فى مرج به أشجار أخرى تتخطاها تدريجيا.

لو كان قويا ومؤمنا بالأغانى، الجد أمورى قال بأن تنين نار قد يأتى. فى الأول ظن آلان أن" قوى" تعنى القوة الجسدية، لكن وهو مستند إلى شجرة، فكر أنها أقرب إلى الأمل أو الصبر. من موقعه، رأى آلان البرج فى الأرض الخلاء على يمينه، لكن مع ضوء القمر امتزج مع الأعشاب وبدل مكانه مع الصفصاف الأحمر والزعرور البرى. لم يكن كبيرا. مشى نحوه وجلس، أخذ يدعك الصخرات الاثنتى عشرة المكومة على شكل هرم مع زهور الأبدية التى نبتت حول قاعدة الهرم وبتلات الدموية التى مالت فبدت مثل نقش مضىء متناثر فوق قمة الهرم. لقد اعتمد على كل هؤلاء الكائنات الأبدية مثل تنين النار كى يساعدوه. يولو. تو(*)،

الريح، الماء، الخشخيشة، الليل الحالك والنجم. حاول تذكر بقية النباتات والحيوانات، لكن الحزن ألمَّ برئتيه وشعر بريح الليل العنيد تهب وسط الأعشاب القريبة.

"أوه يا جدى، لقد اعتقدت أنك أكيد محقا، كونك كبير جدا فى السن". نشيج قوى هزه، دار حول البرج، رأسه فى العشب، ضاما ركبتيه إليه، تاركا العجلة الضخمة تدور للأعلى باتجاه الشمس.

اندفعت خنفسة خارجة من تحت صخوره. شىء ما هبط. جمرة خضراء ذهبية انطفأت. جلس مثل اليراعات مزهولا على الحد الفاصل بين السنديانة والمرج. بدءا من قمم الأشجار أخذت ترف فى نوبات ثم تسقط للأسفل بين الأعشاب. نهض وحاول الإمساك بواحدة، لكنها أربكته. بدت أقرب مما أعتقد، ثم فجأة أومضت فوق يده، علمته معنى الفضاء. ذهب ليجلس تحت السنديانة، معطيا ظهره للبرج. تستطيع الحصول على المرج، فكر، وهو يخرج الخشخيشة ويهزها ويغنى بصوت هادئ.

من ظل الشجرة، شعر بطرف ضوء القمر يبتعد عن وجهه. هل كان نباح الكلب، أو دمعة فى ضوء القمر تلك التى جعلته ينظر لأعلى وسط الأوراق المعتمة؟ شهاب واحد انفلت من الظلام، مندفعا نحو الأضواء قرب الخليج الأخضر. شهاب آخر انفجر

فوقه، مائلا بقوة وبسرعة نحو شجرته إلى أن انطفأ مباشرة فوق رأسه.

أخرج المرآة وركزها باتجاه البرج خلفه. بلع الهواء وهو يتمنى ألا يموت بسبب نفس التنين السام. رأى وميض ملتو على امتداد الجبال ووسط أشجار السنديان. يراعات؟ جرت حرباء صغيرة فوق الصخور. من حلقها انبعثت خشخشة الغابات وأتت بألوان النجوم الهادئة.

بعد أن غنى مثل الشحرور فى الفجر، ثم مثل الريح فى السنديانة، تحدث التنين إلى قلب آلان. لم يعد يشبه الحرباء كالسابق. كبير مثل كلب له خرطوم، رقد على الأرض، التف حول البرج، وجسده يملأ الهواء بألوان قوس قزح. لم يكن متأكدا كيف تـكلم، لكن الأغانى صعدت من عمق رأسه، أغانى لم يعرفها من قبل. تحكى عن كيف عرف أجداد من قبل أجداد منذ بدء الخليقة. غنى عن الكون والحب. علمه كيف يستشعر المستقبل فى الصخور. غنى عن المجاعة والمرض، وهو يغوص مثل ماء بحيرة فى صخور البرج ليصبح ظله ومرشده.

عندما استيقظ، كانت يده مقشعرة. باتجاه الشرق، كان هناك أثر أبيض علّم نصف السماء وتدلت النجوم الدافئة اللامعة من

شبكات معلقة فى الأزرق العميق. استدار آلان لسماع نباح كلب ورأى الكلب الملوية أذنه يأتي راكضا نحوه من وسط الأشجار المقطوعة. شعر آلان بالخوف فألقى بأشيائه إلى جيوبه، فرد ساقيه المنملتين، وركض على ساق واحدة باتجاه البرج. نظر الكلب من خلال العشب بينما غربل آلان الحصى المتبقى من برجه إلى أن وجده- قمر صغير سقط إلى الأرض من أجله. ألقى به فى كيس التبغ وسار عائدا إلى الطريق الترابى وسط الأشجار وهو يستمع لصوت ذلك الكلب ورفرفة الريح وسط الأعشاب. قنبرات المرج شرعت تغنى فى الفجر المبكر، الشحارير ذات الأجنحة الحمراء نادته، "كسكاليسالكس" فتلونت كل شفرة فى المرج والحقل بلون أخضر داكن، مفضض بالندى، وآلان متوجه الى البيت.

قضى آلان يومين يعتنى بالصخرة. رتب لعبه من الرجال، مجموعة الحيوانات المحنطة، وسياراته. صنع كهفا للصخرة من كرتون مغطى بقمصان فى درجه. عندما يخلد إلى النوم، يضعه أسفل وسادته. ذات يوم بعد الظهر أخذ الصخرة إلى الصالة، غرفة المعيشة ودار بها فى غرفة السفرة، المطبخ، وخرج من الباب الخلفى، وهو يشرح بماذا يشعر وكيف كان الحال على الأرض.

شرح كيف يحب غرفة نومه، رغم وجود علامات أسنان محفورة على حافة النافذة من أيام طفل سابق عاش هناك من قبل.

كان يستطيع القفز على الكنبة الخضراء فى غرفة المعيشة لأن بها زنبرك. المنضدة البلاستيكية حولها مقاعد تكفيهم كلهم عندما يعود أبيه. فى يوم آخر ترك آلان الصخرة فى درجه وتحدث إليها داخل قلبه. قدم لها أول قضمة من الطعام وشعر بحضورها مثل وجع معدة خفيف فى صدره.

فى تلك العصرية المشرقة دخل إلى غرفة المعيشة حين كانت أمه تنفض الفوط وتطويها. كان حريصا ألا يجلس على الزنبرك المكسور، وقال، "لقد فعلتها يا أمى. لدينا تنين نار ليساعدنا الآن".

"آلان" ردت، وهى تلتقط فوطة أخرى. "أنت تتعلق بشىء عفا عليه الزمن. أعلم أن جدك كان يعنى الكثير لك، وفى غياب أبيك الأمر شاق. الآن اذهب وساعد أخيك فى إحضار البطاطس".

"لكن يا أمى، أنت لا تفهمين. لقد رأيت نارا خارجة من السماء ملونة مثل قوس قزح".

ابتسمت أمه وربتت على شعره. "أجل، آلان. أنا متأكدة أنك رأيت ذلك. الآن اذهب" قالت وهى تدفعه بلطف إلى الباب الخلفى.

أغلق الباب بقوة ومشى إلى الحديقة على الجانب الآخر من البيت. ابتعدت الجنادب عن طريقه وهو يدق الأرض دقا باتجاه

ليل، الذى علق شعره فى المذراة وهو يقطف نبتة. انتزع أربع بطاطات وألقى بها إلى أحد الصناديق الموضوعة فى نهاية الصف.

"تقريبا حان الوقت، أيها الحالم" قال. "لقد استغرقت أربع ساعات لتنظف غرفتك. أمسك المذراة أو شد البطاطا من وسط النباتات".

انحنى آلان إلى التراب وفتش بيديه عن البطاطا.

"هنا، يا ضعيف العقل"، صاح ليل، وهو يشير إلى نبتة. "ابحث هنا. البطاطا أكبر حجما من الصخور والبحث عنها أكثر متعة. ربما تجد رجلا قصيرا هناك".

"ليل"، قال آلان، وهو يحفر الأرض الباردة. "ليل، هل ستهرب إذا عاد أبينا؟"

"غالبا".

"ليل، لقد رأيته. تنين النار". مال آلان إلى أخيه الذى انحنى على الأرض ليخرج مزيدا من البطاطا. سمع آلان تنفس ليل ورأى عينيه الساخرتين.

"كان أزرق وأحمر وأخضر. لقد غمر الصخرة البيضاء التى خبأتها فى درجى". لوّح آلان بذراعيه ليريه كيف استطاع التحليق.

"إنه يحمل المستقبل بداخله، تماما مثل تلك الصخور التى تكسرها بحثا عن الحفريات. أنا أعرف أنها سترشدنا الآن".

"لقد سحقتها هذا الصباح، يا معتوه" قال ليل، كأنه يتحدث إلى البطاطا. نظر ليل إلى أخيه القزم كما لو كان يستعد لإلقاء نكتة. "لم تصرخ. عليك أن تتعلم وإلا سيهزأ بك الأطفال الآخرون. هذه هى أميركا. السحر للأطفال الرضع. لا شيء يحدث لأجلك فقط. ولا لأى شخص آخر".

"لكن يا ليل"، بدأ آلان، وهو يصنع قبضات من التراب فى يديه. استمر ليل وقد رفع صوته. "هل ترى هذا الكلب البنى الغبى الذى يتنشق حول الظل عند منزل كورنليوس؟ إنه قريب الشبه بتنين النار. اذهب وتحدث إلى الكلاب. على الأقل سيظن الأطفال الآخرون أنك طبيعي".

رغب آلان فى أن يدفع بنفسه إلى الأرض. رأى دماء ووجوه تتطاير بفعل القنابل. سمع رعدا فى أذنيه لم يستطع تحمله وهو يقذف ليل بالبطاطا، الحصى، التراب، السيقان، والأوراق. وصاح وهو يخلع نعليه و بهما بغضب، "نحن محكوم علينا. محكوم علينا. أنت لا تهتم بأى شخص أو بأى شيء".

غطى ليل وجهه إذ أصابته بطاطا كبيرة وحاول أن ينهض مجددا، لكن حذاء ضرب أذنه فصرخ من الألم وهو ينهار، وعيناه

تضيقان ليصبحا شرطتين. وإذ رأى آلان فم ليل يبدأ فى تشكيل كلمات، أمسك بالمذراة وحطمها على فمه. اندفع الكلب باتجاه الصبيين اللذين يتشاجران. الدم يتساقط من ذقن ليل. التوى وتقوس وأدار ظهره باتجاه نبتة بطاطا مقلوبة. رفسه آلان فى الضلوع والفخذين وهو يصيح. "أنت بلا قلب. بلا قلب. سنموت كلنا بسببك. رميت كل شيء. البحيرات والأشجار، الزهور والناس. نحن محكومون للأبد".

تلوى ليل على بطنه، وهو يطلب بشق النفس من آلان أن يأخذ شيئا من جيبه الخلفى. صار الكلب يقفز حولهما. رأى آلان الانتفاخ وأخرج منه الصخرة البيضاء. كاد ليل أن يختنق وهو يحاول استعادة أنفاسه.

"كاذب"، قال آلان بمرارة. "لقد أخبرنى تنين النار أن والده عائد إلى هنا. مذنب كبير سيجعل الكل جائع. سيغير اتجاه الريح وستنكمش الأرض تحت كل شيء كما لو كان كل شيء فوق سجادة "تنهد وهو يخفض صوته ليستكمل حديثه". ستحترق الحقول لأن أمثالك من الناس لا يهتمون بأى شيء. تنين النار الموجود فى هذه الصخرة هو طفل المذنب الكبير. قال إنه سيرشدنا خلال الأوقات الصعبة إذا فقط اعتنينا بالأمر، لكن كيف أستطيع ذلك يا ليل؟ "أظلم وجه آلان الصغير". الجد كان يعرف، كان يعرف حقا. "قرب آلان

الصخرة من ليل كى يراها. نبح الكلب فى وجههما وهو يتمدد ويراقب فى نهاية الصف، وذقنه فى التراب.

نظر آلان إلى السماء فوقهما، الشمس الساطعة التى تنبض وسط السماء، والظلال التى تغمق تحت أشجار الزان. عندما هبت الريح مرة واحدة، رأى زيل طويل من نور أخضر ويلتف وراء الحديقة، ثم يدور، ويرتفع إلى الأخضر والأزرق فوقه. أسفله، بصق أخوه دمه. تقطر على ذراعه إلى الأرض. وبينهما هما الاثنان، فى حضن راحة يد آلان، التمعت الصخرة البيضاء وتوهجت بانعكاسات خضراء وزرقاء من الشمس، وحاول آلان، وهو ما زال غير متأكد، أن يتذكر كلمات تعنى "سامحنا" بلغته المفقودة.

تعليقات:

* أونيدا. إحدى الأعضاء السبعة لرابطة الاروكى. تم إزاحتها من نيويورك إلى ويسكونسين. مجتمع أونيدا وقرى أمانا. مجتمعات مثالية يوتوبية فى القرن التاسع عشر، تشكلت فى الأراضى الزراعية فى مناطق وسط غرب الولايات المتحدة.

* الجد. الجد الشمس، أحيانا رجل مسن مميز يجله الآخرون. لكنه يفتقد الأهمية الدينية والأسطورية المهيبة لـ "الجدة". ومع ذلك المصطلح يستدعى الرهبة والإجلال والاحترام. هو أيضا يربى الأطفال ويعلمهم التحكيم العادل، ويقدم النصائح الطيبة لأفراد القبيلة.

* "شعب الصخرة الواقفة"، واحد من الأسماء التى تطلق على شعب الأونيدا. هناك العديد من القصص التى تروى عن نشأة الصخرة، مثلما توجد العديد من الحكايات حول ما حدث لها ومكانها الآن.

* لادنالوديبيدا. مذنب بلغة أونيدا. تكررت رؤيته فى فترات بعيدة وخلال سنوات ١٨٣٣، ١٨٦٨، ١٨٩٨، و١٩٠١. فى سجلات عام ١٩٤٩، تحدث نيلسون كورنليوس، من أونيدا، عن أن

ظهور المذنب قد تم التنبؤ به. ووصفه بأنه لهب ضخم يأتى من الأرض، مرئى للحظة، ثم يتجه غربا. لم يكن يسمح للناس بالخروج بسبب "الرائحة القوية لجسد" المذنب. قيل إنه أصدر صوتا مثل الأزيز أثناء مروره قبل أن يرتطم فى النهاية بالمحيط.

* يو ولوتو. "الريح" بلغة أونيدا. الحروف الأخيرة فى الكلمة دائما ما تنطق همسا مما يجعلها كلمة حلوة الصوت لدى الناس.

المرأة الشجاعة

شيرلى هيل ويت

حسنا، مضى زمن طويل منذ أن جئت إلى هذا الوادى، هذا المنحدر الكائن بين نهرين، فى منطقة الجبال. وكان ذلك بعد بضعة أشهر منذ أن صار وجود فينكا تايوجا أمرا واقعيا، رغم أنه بالطبع أتى إلى هنا مرات عديدة من قبل، فى زمنه الحالم.

يميل المخيمون عادة إلى تسوية أماكن الأسطورة المتغضنة من أجل رواية أفضل و أيضا من أجل أن يفهموها بطريقة أفضل. بهذه الطريقة، يتجاهلون تلك الأسئلة التى تركت بلا إجابات فى زمنهم باعتبارها عديمة الجدوى. الحكاية تنسج أفضل كلما حيكت ببساطة أكثر، على كل حال.

وهكذا انطلقوا نحو سلسلة الجبال دائمة الخضرة وقالوا "أجل، المرأة الشجاعة أتت إلى هنا، إلى أنحائنا حتى قبل مولد بيب الذى صار الآن رجلا كبيرا يمتلك مزرعة خاصة به على بعد

مسافة صغيرة من هنا"، أو ". . . منذ فترة قصيرة بعد العام الذى لم يكن لدينا فيه أى فول، وبعد العام الذى أعطى فيه الرئيس الجديد بذور مجانية لكل شخص يرغب فى زراعة حقول جديدة. لقد تفاجأنا جميعا- ليس بسبب مجىء المرأة الشجاعة، لا- بل بسبب برنامج الفول، لأن الرئيس الجديد كان مثل سابقه، يد فى الجيب وجيب فى يد الأمريكيين الشماليين. ماذا كان يعرف هو عن الفول؟ "كيف جئت أنا، لماذا جئت، مع من جئت، منذ الوقت الذى طرت فى نسيج الحكاية: كل ما تبقى هو أننى جئت.

فى نهاية ذلك الموسم الجاف، ومع بداية الأمطار الدافئة، تسلقنا الجبل. فى ذلك الوقت، كنا الناس الفضوليين من الخارج، مميزون كمجموعة وليس كأفراد. "يا لغرابة هؤلاء الناس! يعيشون فى أكواخ صغيرة من القماش هنا على هذه الأرض". كانوا يمرون أو يقفون بالقرب من تلك الأكواخ لا ليتناقشوا حولها بل حول قاطنيها.

لكنه كان متميزا حتى فى ذلك الوقت، ليس بسبب سمعته، بل لكونه الصديق الصغير لـ بورفيرو موراء رجل يكن له الجميع تقديرا بالغا فى المنطقة.

لقد شكل تغلغل المخيمين فى كل الوديان المجاورة خطرا على أماكن الحياة البرية الباقية. عندما أصبح مجموع العائلة كبيرا جدا أو إذا وجد زوجان قويان بصفة خاصة كانت النتيجة استيطان سلسلة الجبال التالية، وبالتالى قلة الأماكن المتوفرة للحيوانات البرية.

ورغم أنه أيضا سوف يستوطن أحد الجبال قريبا، إلا أنه قام بعمل متوازن وهو أن يحتفظ ببعض المناطق مخصصة للحيوانات كى تكون بعيدة وحرة من تدخل البشر. صعودنا الجبل كان من أجل هذا الهدف: تعيين حدود المحمية الطبيعية الجديدة. ستصبح هذه، بعد الانتهاء من إجراءات الورق الروتينية فى العاصمة، منطقة مخصصة للحياة البرية.

هذا لا يعنى أن الصيادين سيظلون بعيدا. فى الحقيقة لا. لكن غالبية الصيادين سيكونون من المخيمين المحليين، وقلة فقط ستكون من هؤلاء القتلة المسلحين الذين يأتون من المدينة لقضاء عطلة نهاية الاسبوع، والذين يستغرق عملهم المميت أيام فى حين يستغرق المخيمون سنوات. (كم يشتهى المخيمون تلك البنادق!)

ذهبنا إلى أقصى ارتفاع يمكن أن تصل إليه الخيول واقتربنا من الجبل. غرست الحوافر فى الممرات الجبلية فى الصعود مما أدى إلى انزلاق التربة الحمراء وتعثر الخيول الصغيرة عند

النزول. كان هناك مطر كاف جعل الممرات عشوائية إلى حد ما لكن لم تكن سيئة بالدرجة التى تجعلنا نتجنبها. خلال أسبوع أو اثنين، ستصير قابلة للعبور بالنسبة للمسافر اليائس المصمم على العبور. غالبا ما كانت تنهار الخيول وترتاح على جذع شجرة. ثم كثير من التهديد كى نستحثها على الصعود مرة أخرى. وفى المنحدرات لم تكن الأرجل المشدودة والحوافر كافية لوقف الركب. أكثر من مرة هبط من على حصانه كراقص أو كلاعب أكروبات، ومع انهيار التحكم، يستدير الحصان ببطء فى اتجاه الممر.

لصعود تلك الجبال، يهبط الواحد أيضا، متتبعا خطوط النزول ليجد المنحدر التالى الصاعد لأعلى. لذا، فقد تركنا آثار اقدامنا، صعودا وهبوطا، على جوانب الجبل الجد، آثار أقدام تزول بعد ثوانى بفعل الأنهار الصغيرة المحملة بالطينة.

رغم كل المطر والماء، استطعنا الوصول إلى آخر قبة سكنها إنسان وحلوقنا جافة جدا. أنف جبل صغير بدا مثل الخيال، عشب أخضر زمردى، شجيرات وردية وزهور خبيزة تحيط بالمكان. الأنف كان ضيقا، بالكاد يتسع للخيول كى تقوم بحركة دائرية حول الجوانب الثلاثة للبيت، فيصبحون مرة أخرى فى مواجهة الجبل. لكن حتى هنا- أو ربما بسبب كوننا هنا- اضطررنا إلى خفض رءوسنا حتى لا نصطدم بهوائى إذاعى.

من المداخل المظلمة تطلعت إلينا وجوه نسائية. كانت زوجة أخو بورفوريو، امرأة هندية، وبناتها. مرض ما حفر أكياسا جلدية كبيرة على خدى الفتاتين تم التئامها لكن وجهيهما صارا أشبه بسطح القمر.

الرجال كانوا هنا وهناك فى الحقول المروية. صيحة الـ "أوباى"- البعض يقول إنها آخر ما تبقى من الثقافة الهندية- حذرتهم باقترابنا. سيصلون بسرعة كى يروا المخلوقات الفضولية التى أحضرها بورفوريو.

رذاذ المطر وطبقات الضباب حولتا أنف الجبل الزمردى إلى بحر من السحب. حتى الصوت انقطع: فقط أصوات الطيور على أغصان أشجار الخبيزة المزهرة وأصواتنا هى التى ملأت هذه الجزيرة.

لكن الاستراحة كانت قصيرة. الآن، بدون خيول، بدون ممرات، صعدنا فى خط مستقيم خلف البيت الصغير، أحيانا مثل سرطان البحر، نرتكز بثقلنا على الأعشاب والنباتات والأغصان، آملين ألا تتكسر وتسقطنا. وعندما كان يحدث هذا كنا ننزلق فى الطين الأحمر والأخضر المحروق إلى أن نستطيع الامساك بشيء أكثر قوة. كانت الأيدى، العيون، الطين، والنباتات حميمية جدا

لدرجة أن كل حصن كان له شخصيته المميزة. وكان هذا الشعور يتكثف عندما كنا نتذكر الكلمات الرقيقة التى قالتها إحدى الفتاتين بالأسفل، أنها لن تصعد لأعلى لأنه يوجد أفاعى كثيرة بالمكان.

يجب أن أخبرك أن دموعا حارة وغاضبة اندفعت من عينى مرات عديدة، وتعجبت لجنونى الذى أتى بى إلى هنا، وتعجبت لجنون بورفوريو، الذى لم أعد أثق به. بدا لى أن أى هندى يستطيع صنع ممر أفضل من مجرد تتبع طرق الحيوانات. لابد أن لديه خطة ما، وإلا كيف استطاع الاقتراب من قمة الجبل؟

رغم كل تعب التسلق، الرجل الحالم ظل مرحا. أصبحت غاضبة إلى درجة ما منه لأنه لم يقدر معاناتى، جروحى وكدماتى. مرات كثيرة أومض غضبى باتجاهه لكنه كان يتلاشى سريعا. كان يبتسم. كان يغمز بعينه. كان يمد يده ليساعدنى فى تجنب الشقوق. ثم مرة أخرى أصبح وحيدة فى معاناتي، يتراكم الغضب، ويتصاعد الوجع.

فى أحد المفارق انقسمت مجموعتنا إلى قسمين، بدون تخطيط. صيحات "أوباى" التى كنا نسمعها من حين لآخر جعلتنا على اتصال رغم أنه يبدو أننا لم نقترب كثيرا. لم تعد السماء زرقاء أو السحب بيضاء بالنسبة لى، كانت موجة كبيرة من الأخضر الأملس تتعالى

للأبد. الهراوات الموسيقية كانت ذات نفع قليل. كى تؤرجحها عليك إفلات يدك. فظلت الهراوات فى أماكنها مغمدة.

الوقت كان مستتقع مسكر يملس على بطوننا عندما كنا ننزلق فى كل الاتجاهات. لم تكن هناك حرارة. كان هناك فقط بلل. بلل أخضر طويل، لامع ومخطط بالأحمر، ظل هو علامتى لتحديد الوقت الذى استغرقناه للوصول إلى القبة المأهولة.

غمرتنى متعة أن أستطيع أن أقف مستقيمة. لطالما تعجبت من ولع الإنسان بالمساواة بين الصحة الجيدة والوقوف على ساقين. حاول أن تتذكر حادثة ما رأيتها: ألم تكن هناك محاولة فورية لمساعدة الضحية على الوقوف والمشى. يبدو أن الأمر أكبر مما هو عليه. انه تأكيد جنسنا على فرادته.

اقتربت المجموعتان الصغيرتان من بعضهما عند القبة المسطحة المغطاة. عندما دخلنا إلى مكان صغير خالى من الأشجار، كان بورفوريو قد عمد فورا إلى قطع نخلتين، كى يحمل قلبها فى طريق العودة من أجل الأكل. الكل وافق. لكن أن تحمل أى شىء على هذا المنحدر الحقير كان أمرا فوق تصورى، خاصة أن تحمل جذوع شجرة.

لكن المكافأة كانت موجودة. موسيقى الهراوات أحدثت فتحة في الحائط دائم الخضرة. خطونا داخله، فوق السحب، فوق الضباب، كنا مغمورين بأشعة الشمس المتوهجة، في وعاء آزوري من السماء. ووراء ذلك، المحيط الهادى رقد هناك ناعسا لامعا. وتقوس قوس قزح فوق الجبل الصغير والوادي. لم نكن الأوائل الذين قاموا بهذه الأوديسة، لكننا شعرنا أننا كذلك.

حسنا، لن أخبرك بطريق العودة، رغم أنني أتذكر أنه كان أكثر صعوبة من طريق الذهاب. بدا لى هذا غير مفهوم، لكن هذا ما كان. مرات عديدة كنت أعرف أن بورفوريو تائها وأن أى شخص- حتى أنا- يمكن أن يجد طريقا أفضل للنزول. ربما لم يكن تائها. لكنى استمريت أفكر بأنه كذلك، لإرضاء احتياجاتى أكثر من احتياجات الواقع. لم تعد مئات الأفاعى التى تراقبنا تثير اهتمامى. إذا كان على الاعتراف الآن فإن الانزعاج هو انفعالى الأساسى. وكنت أحيانا أزيحه من طريقي. لكن كان لدى أحيانا أفكارا أخرى عن الشهرة التى أحاول الوصول إليها بشكل عميانى.

هو وأنا كنا نمتطى الخيل طيلة الطريق الجبلى إلى أن وصلنا الى أسفل التلال ثم إلى الأراضى المزروعة بالنخيل، ثم إلى الشاطئ. كان هناك دليل معنا فى معظم الطريق وتتبعنا أخبار امرأة غزت جبلا بدون اسم.

أجل، كان هذا منذ عقد مضى، أكثر من عقد. اشترى الأرض من مالك المزرعة، وسدد المبلغ للبنك على دفعات منتظمة. كان حريصا ودقيقا للغاية فى كل تعاملاته. أبلغ عن موت البقرة بسبب لدغة ثعبان، على سبيل المثال، أخبار سيئة لم يكن البنك فى حاجة إلى معرفتها. آلاف من الأشجار تم إحضارها على ظهور الرجال، الخيل، العربات التى تجرها الثيران، ثم مؤخرا على الجرار وسيارات الجيب. استغرق الأمر أكثر من عام كى يستطيع الجرار شق طريقه إلى البيت الذى كان يشيد فى ذلك الحين.

الأشجار كانت محل الاهتمام الأول، الموسم الأول لأشجار الفينكا. لقد أحضر أشجارا متنوعة لكنه ركز أكثر على أشجار الجوز، السرو والسنديان من بين الأشجار الخشبية، والموالح من بقية الأنواع. استمر فى رحلات جمع البذور وأحيانا كنت أذهب معه لمساعدته. وكان هناك مهاجر ألمانى عجوز أتى إلى هنا قبل عام ١٩٠٠ والذى سمح لنا بأن نجمع بذور الأوكالبتوس. فالحالم كان يؤمن بقدرات الأوكالبتوس العلاجية واعتزم بناء ساونا كى يستخدم فيها الأوراق بالإضافة إلى السنديان والسرو لعلاج الرئات المملوءة بهواء المدينة الملوث.

سمح لى بأن أزرع أربع نخلات ملكية أسفل موقع البيت ثم أنواع أخرى من النخيل فى أماكن أخرى. أشجار البجيباى تم وضعها لاحقا مع إنشاء الطريق.

مساهمتى فى العمل كانت ضئيلة، ومع ذلك أشعر بأنه كان لى دور فى عملية خلق ذلك المكان، فينكا تايوجا. بالطبع، الاسم جاء من تراثى، ويعنى المكان الذى يلتقى فيه نهران. لكنى أعتقد بأن المنحل كان هو مساهمتى الكبرى: أقصد فكرة وجود النحل وترتيب لقاء له مع خبير النحل فى الجامعة. كان يشعر نحو العسل بطريقة شبيهة لما يشعر به تجاه الأوكالبتوس: الاثنان معالجان. حيث وضعنا أشجار الموالح، أنشأنا المناحل فى العام الثاني. عندما كان النحل يحتشد ويندفع، كان يتعلق على أغصان الليمون الحلوة حيث يستطيع بيبى استعادتهم ثانية.

رغم أن بورفوريو ظل الراعى والمستشار، إلا أن بيبى وسيسيليا صارا القلب والمحرك لمزرعة فينكا. ودائما الحالم هو روح وعقل المكان، لكن بيبى أبقى كل شىء على الأرض. سيسيليا أنجبت العديد من الأطفال من نوعين مختلفين: هؤلاء الذين لا يتوقفون عن الكلام مثلها وهؤلاء الذين ينطقون بضعة كلمات رقيقة مثل بيبى.

لكننى أبتعد عن الموضوع. تلك السنوات الأولى شهدت مولد أول أحلامه. شجرة أرز عملاقة، أشد شجرة فى الغابة، ومنها كان خشب كل البيت. جذعها الأحمر غاص فى الخليج الذى شقه

بورفوريو بضفتين عريضتين. الأرزة الضخمة كانت مبروكة وتم زرع أرزات صغيرات حول جذعها. فى ذلك الحين بدأنا نشكل ما صار بحيرة صغيرة، فكنا نراكم مزيد من الحجارة فى كل مرة نستحم فى ذلك الماء شديد العذوبة.

البيت صار أكبر مما توقعنا عند بداية تشييده. هو اختار الموقع قبل أن أكون هناك، لكنى أعتقد أننى أقنعته بأن يمده من ناحية التل بدلا من الناحية الخلفية على القمة المسطحة. عندما تحلق الدخان ذات ليلة مقمرة، توصلنا إلى أن موقع هذا البيت قد تم استخدامه من قبل الهنود الأمريكان فى أزمنة غابرة. المنظر أمامه يحيط بسلسلة الجبال والوديان، تشرق الشمس متأخرا فى الصباح لكنها تغرب متأخرا أيضا. خليجان ونهران ربطا المنحدرات. فى العصرية تدور سحب كبيرة رطبة من المحيط الهادى تغوص فيها الطيور بحثا عن وجباتها من الحشرات. تأثير منشورى للشمس وسط السحب أكسب ألوان جانب التل قوة ووهجا، جاعلا البقرات البيضاء أو السطح الأحمر يظهر بقوة من على مسافة أميال. ثم بعد ذلك بثوان، يغيم كل شىء فى ضباب أرجواني، باستثناء قمة الجبل التى كانت مرئية من فوق السحاب المتقدم. خط رفيع من الأشجار كان على امتداد سلسلة الجبال، دليل احترام للقانون الذى ينص على أن تبقى حواف سلسلة الجبال مشجرة لمحاربة التآكل.

المرأة الشجاعة زارت مزرعة الفينكا واشتغلت فيها مرات كثيرة. كنت ممزقة ما بين إعداد أطفال المخيمات للأشياء التى ستحدث وبين رغبتى فى الاهتمام بشئون الصحة والمرض. وهكذا قمت بالاثنين، وغالبا لم يتم أى منهما على أكمل وجه. علمتهم النسبية الثقافية بدلا من الاقتصاد وكنت معالجة، لا جرّاحة: عالجت أكثر بقوة الإرادة بدلا من خفة اليد.

أعطانى غرفة فى البيت، البيت الكبير الآن، ورغم أنه مرت سنوات قليلة قبل أن أستطيع المكوث دون الانشغال بأمور العمل الخارجى، كنت أعرف أن غرفتى ستظل هنا دائما، جاهزة لى.

البيت والبساتين، وكل شىء نما واذدهر تحت إشراف يديه القويتين والرقيقتين فى نفس الوقت، يدان صغيرتان لكنهما مربعتا الشكل، عريضتان للنحت وصغيرتان للرسم. فتلك الأشياء كان يقوم بها أيضا. رغم انشغاله الدائم، فإنه بطريقة ما كان هناك الوقت الكافى لكى يرسم جانب ذلك التل، وينحت وجه بورفورية المتغضن، ويلعب على الهارمونيكا وقت الغسق. وعندما كانت الجدة القمر تشرق وتتلقى التحيات، كان هناك الوقت الكافى أيضا للكلام عن الحب والجمال.

ثم جاء الوقت الذى لم يعد يمكن فيه تأجيل موضوع الزواج. استثمار الروح والتعب يريد أجيال مستقبلية كى تحصد ثمار الجهد.

لذلك ذهب إلى الجامعة للبحث عن زوجة. وفى الحقيقة لم يستغرق الأمر وقتا طويلا. كان لديه العديد من الأصدقاء الذين يودون مساعدته فى الخروج من مشكلة للدخول فى أخرى!

وهكذا فى يوم ما جاءت للزيارة. كنت فى وسط الجبال مع امرأة جاءها المخاض عندما أتت. لم أعرف أبدا كيف تم تفسير سبب وجودى فى البيت. لكن لدى عودتى، أمطرتنى سيسيليا بسيول من الكلمات عن تلك الزائرة. لكن من الواضح أنها تصرفت بشكل جيد، لأن سيسيليا عادة ما تنتقد كل شىء فى مثل هذه الظروف. سوف تصير زوجته. لكن الأهم من ذلك، ستكون أم أولاده.

كان ذلك قبل العرس وقبل أن أراها عندما وقعت تلك الحادثة. روكسادن كانت دائما فرسا ضعيفا. فى الواقع، قامت بالقليل مما يفعل أى حصان جيد. انزلقت وهى تهبط على أحد الممرات الوعرة وقت الشفق فى موسم أمطار المحيط الهادى، وأنا على ظهرها. كما فى أفلام الحركة البطيئة تدحرجنا سويا، كما فى الحلم، ثم توقفت أنا بينما استمرت هى فى التدحرج للأسفل. بدا لى أننى لم أصب بأى جروح، لم يكن شىء يؤلمنى. لكنى لم أستطع التحرك. كنت عالقة فى جذور بعض الأشجار التى منعتنى من السقوط لأسفل. لم أسمع صوت روكسادن. عرفت فيما بعد أن

عنقها كسر. الفرس الحمراء المسكينة، لن تلد أبدا وتستمتع بشد الشفاة المصممة على مص ثدييها.

انقضت الليلة، ببطء أو بسرعة، لا أعرف. لم أشعر بالبرد أو الرطوبة أو بالألم. فقط عقلى هو الذى بدا لى منتبها وكان هادئا، من دون قلق أو توتر.

وجدنى بعضا من أطفال بورفوريو فى اليوم التالى. واستغرق الأمر يومين لنقلى إلى المستشفى فى العاصمة.

وهكذا ترانى الآن، ما تبقى منى. إذا كنت أستطيع الحديث، كنا سنتكلم عن هذه الأشياء. لقد أخبرتك بكل هذه الأشياء بصمت فى رأسى، لأننى أحيا بتذكر أيام الخلق تلك. ولأننى أحبك، يا ابن الحالم، أحد مخلوقاته الكثيرة، لكنك الأساسى الذى يعضد الآخرين. أنت وأخوتك وأخواتك سبب الكفاح والألم كى ترثوا تلك المزرعة، فينكا تايجو، حلم رجل وكنز امرأة. بدونك، وبدون أمل وجودك، لم يكن من الممكن خلق هذه المزرعة وسط تلك لجبال.

والآن تخبرك سيسيليا بأننى كنت ملكة جمال ذات يوم! آه تلك المرأة، تلك الثرثارة. لكن كل ما تراه الآن حطام وجه ممزق، رقعة تغطى تجويف العين، وجسد مشلول. إنها تعتنى بى جيدا، سيسيليا، لكن من تبذل جهدا خارقا مع عظامى هى ابنتها ماريانيتا.

تلك الطفلة ذات الوجه المستدير التى كانت تبلغ عامين عندما شيد البيت، كانت من النوع الذى لا يتوقف عن الكلام.

لكن رد على أمك التى تناديك إلى العشاء، أنت الذى تنظر إلى وتساؤلات كبيرة تملأ عينيك. فقط مخى يستطيع التجاوب معك لكنه ليس لديه وسيلة نقل كى يحمل نفسه. الباقى ميت. أحيانا كثيرة أتمنى لو كلى ميت. لا أستطيع حتى أن أوقف وجودى وطالما هو الذى يوجه الحياة هنا، لا أستطيع أن أتوقع منه أن يدعنى أموت بسرعة مثلما لن يتخلى عن أى كائن حى آخر، حيوان أو شجرة.

فى الأماسى كان أحيانا يأتينى بعصائر حلوة ويتحدث عن كيف تزدهر الأشياء أو كيف تحتاج إلى مزيد من التشجيع. أو يعزف على الهارمونيكا مقطوعة الدانوب الأزرق من أجلى.

ثم عرفت لم ما زلت أثابر فى هذا الجسد الميت وخلف هذا الوجه المحطم: عندما أموت، سيفقد الشاهد الوحيد على الأحلام التى تحققت على مدار عقد. أطفاله هم الجائزة التى سعى إليها، لكن عندما يأتى إلىَّ فى المساء، نتشارك فى عالم مضى عليه زمن، لكنه ما زال حيا، لأننا الاثنان مازلنا موجودين. شعاع من الضوء يلامس لحيته، التى أرى أن الأبيض ينتشر بسرعة وسط الأحمر. أستطيع أن أشعر بابتسامته فى العتمة وبيده تلمس يدى الميتة.

"حسنا، أيتها المرأة الطيبة، كيف تسير خططنا الصغيرة؟" ثم يخبرنى بالأحداث الأخيرة وبالتطورات.

وها أنا ما زلت حية، مغمورة بمزيد من الحب أكثر مما يحق لامرأة عاقر أن تتوقع، حتى المرأة الشجاعة.

(**باولا جن آلان.** Paula Gunn Allen لاجونا، سو ، لبنانية).
ولدت فى كوبيرو ، نيو مكسيكو. شاعرة، وكاتبة، وناقدة . اشتغلت بالتدريس فى جامعات نيو مكسيكو وكاليفورنيا فى بيركيلى ولوس أنجليس. أشهر كتاباتها النقدية دراسة بعنوان

The Sacred Hoop: A Contemporary Indian Perspective on American Indian literature.

كما قامت بتحرير مجموعة دراسات نقدية بعنوان

Studies in American Indian Literature.

وقد نشرت معظم أعمالها الأدبية والنقدية فى العديد من الدوريات والجرائد الأدبية. وقد نالت أعمالها الشعرية متابعة نقدية واسعة وحازت على العديد من المنح للكتابة والبحث. وهى أيضا ناشطة سياسية شاركت فى العديد من الحركات ضد الحرب وضد استخدام الطاقة النووية كما اشتركت أيضا فى الحركات النسائية وهو ما ينعكس فى أعمالها.

(لويز إردريتش. Louise Erdrich شيبوا جبل السلحفاة). نشأت فى واهيتون، داكوتا الشمالية، ودرست فى كلية دارموث. قامت بتدريس الشعر فى المدارس، واشتغلت فى أعمال بناء الطرق، وتحرير نشرة أخبار المجلس الهندى ببوسطن. فازت قصتها القصيرة "أعظم صياد سمك فى العالم" بجائزة نلسون آلجرن فى ١٩٨٢. وسوف يضم كتاب هوفتون ميفلين "أفضل قصص قصيرة لعام ١٩٨٣" قصة "ميزان" لإردريتش. نشرت الكثير من القصص القصيرة والقصائد فى العديد من المجلات والدوريات فى مختلف أنحاء البلاد The Atlantic Monthly)، Ms. ، Redbook، The North American Review). صدر لها رواية واحدة، وبصدد الانتهاء من روايتها الثانية.

(راينا جرين . Rayna Green شيروكي). لديها بطاقة هوية قبلية مشتركة فى تكساس وأوكلاهوما لكنها اختارت أن تعيش فى المنفى فى واشنطن دى. سى. ونيو إينجلاند منذ عام ١٩٧٠. حصلت على درجة الدكتوراه فى الفولكلور والدراسات الأمريكية من جامعة إنديانا. كتبت دراسات متنوعة عن الفولكلور والأنثروبولوجيا التطبيقية. اشتهرت بكتاباتها عن العلوم التقليدية لدى السكان الأصليين والنساء والتى نشرت فى دوريات عديدة مثل Science، Ms.، The Massachusetts Review، Signs: A Journal of Women

in Culture and Society كما كتبت عدد من المقالات عن الفحش التقليدى نشرت أيضا فى عدد من المجلات مثل Pissing in the Snow and Other Ozark Folktales، The Handbook of American Folklore، Southern Exposure. شاركت جرين أيضا فى كتابة سيناريوهات وإنتاج بعض الأعمال التلفزيونية والأفلام. وهى مديرة المشروعات الهندية الأمريكية فى كلية دارموث. تعمل حاليا على الانتهاء من رواية عن رامونا سيكسكيلر، شرطية تحرى سرية.

(**ليندا هوجان** Linda Hogan تشيكاسو). تنحدر أصولها من أوكلاهوما، لكنها تعيش حاليا فى كولورادو حيث تقوم بالتدريس بالإضافة إلى كتابة الشعر والقصة والمسرح. تم إنتاج إحدى مسرحياتها فى أوكلاهوما عام ١٩٨١. حاز اهتمامها بأدب النساء الهنديات بالاهتمام والمتابعة النقدية. تعكس كتاباتها المسرحية والقصصية روحا تجريبية. حازت على عدد من المنح والجوائز أهمها Yaddo Colony فى عام ١٩٨٢، ومنحة تفرغ Newberry Library فى عام ١٩٨٠ والتى مكنتها من إتمام أبحاثها عن تاريخ شعب تشيكاسو. هى أيضا ناشطة فى الحركات المناهضة للطاقة النووية والحركة الهندية الأمريكية.

(**ماری تول مونتين** Mary TallMountain آثابسكان). ولدت في يوكون ريفر في آلاسكا، لكنها تعيش حاليا في سان فرانسيسكو. تنتمي لعدة أصول، روسية، إيرلندية، سكوتلندية وهندية. تقوم ماری بزيارات متكررة لآلاسكا لتقوم بالتدريس في مدارس الغابات ولتستعيد الحس الثقافي والفني الذي ينعكس في كتاباتها. بدأت الكتابة في عام ١٩٧٠ تحت إشراف باولا جن آلان. حصل كتابها There is no Word for Goodbye على جائزة بوشكارت في ١٩٨١. حاليا هي على وشك الانتهاء من رواية بعنوان Doyon التي تقع أحداثها في آلاسكا في بدايات القرن العشرين.

(**روبرتا هيل وايتمان** Roberta Hill Whiteman أونيدا) نشأت في منطقة جرين باي، وتعيش حاليا في منطقة إيه كلير مع زوجها وأطفالها. درست في جامعتي ويسكونسين ومونتانا حيث حصلت على درجة الماجستير في الفنون الجميلة في عام ١٩٧٣. قامت بالتدريس في محمية روزبد، داكوتا الجنوبية، وأونيدا، ويسكونسين، وذلك قبل منصبها في جامعة ويسكونسن. شاركت في العديد من لقاءات الشعراء في المدارس في أريزونا، مينيسوتا، داكوتا الجنوبية، وإيومينج، أوكلاهوما، مونتانا، وويسكونسين. نشرت الكثير من أعمالها الشعرية في مجلات ومجموعات شعرية مختلفة مثلThe Nation، A Book of Women Poets from

Carriers of the ،North American Review ،Antiquity to Now
Dream Wheel ستصدر مجموعتها الشعرية الأولى فى عام ١٩٨٤
عن دار نشر هولى كاو، مينيابوليس، و سيكون موضحا برسومات
زوجها.

(**شيرلى هيل ويت** Shirley Hill Witt آكويسان\موهوك)
تشغل حاليا منصب مديرة قسم المصادر الطبيعية فى ولاية نيو
مكسيكو، كما شغلت سابقا منصب مديرة مكتب روكى مونتين
الإقليمى التابع للجنة الولايات المتحدة للحقوق المدنية. حاصلة على
درجة الدكتوراه فى علم الأنثروبولوجى من جامعة نيو مكسيكو.
وجهت د. ويت كثيرا من جهودها إلى خدمة الحقوق المدنية
والإنسانية والقبلية. لها أيضا نشاط واسع فى الحركة النسائية، ولها
مقالات مهمة فى هذا الشأن. من أهم كتبها The Tuscaroras و
Life and)The Way: An anthology of American Indian
Literature مع ستان شتينر). تعكس كثير من أعمالها الشعرية
والقصصية اهتمامها بالشعوب الهيسبانية.

المترجمة فى سطور

منى برنس

مواليد القاهرة١٩٧٠دكتوراه فى الأدب الإنجليزى، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٤.

مدرس أدب إنجليزى، كلية التربية بالسويس، جامعة قناة السويس.

كاتبة قصة قصيرة ورواية ومترجمة.

إنى أحدثك لترى، رواية، دار ميريت للنشر ٢٠٠٨.

قصر نظر رائع- قصص- الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣.

قطعة الطين الأخيرة- قصص- الشارقة- الإمارات- ٢٠٠٠

ثلاث حقائب للسفر- رواية- مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

الثقافة الشعبية فى أمريكا اللاتينية- ترجمة- المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥.

فلك الأصداء- شعر خالد مطاوع- ترجمة.

زمن من الفيروز- ترجمة- مختارات شعرية لكاتبات أمريكيات هنديات- المركز القومى للترجمة ٢٠١٠.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل



تشكل هذه المجموعة المختارة نوعا من رحلة بحث عن الذات حتى و إن كانت اضطرارية في بعض الأحيان. فمثلما خرج الرجال إلى "الممشى الطويل"، و معهن النساء، و عبروا "ممر الدموع" في القرن التاسع عشر بناء على قرارات الترحيل التي أصدرتها الحكومة الأمريكية حينها، تخرج النسوة الآن في رحلة مشابهة بحثا عن العمل، أو هربا من إساءة رجالهن، أو لتتبع أزواجهن، أو للتعليم. يذهبن إلى المدينة التي قد تصبح نوعا من البيت و قد لا تصبح. البعض قد يعود الى المحمية الهندية، و البعض يهمن على الطرق بحثا عما يطلق عليه الهنود "الكينونة الهندية"، أو ما يسميه علماء الاجتماع بـ "الهوية". لكنها بالتاكيد ليست تلك الهوية الجامدة التي لا تعترف بالمكونات الثقافية المختلفة. فهؤلاء الكاتبات واعيات تماما بمكوناتهن الهجينة، وا بموقعهن الوسط "بين بين"، و بالتالي فإن الهوية بال لهن.مسألة إرادة، فعل اختيار، وجه يجب أن يتشك فعل طقسي.

